

كَمَالُ اللُّغَةِ الْقُرْآنِيَّةِ

بين حقائق الإعجاز و أوهام الخصوم

نظرات

فيما أثير من
شبهات و أوهام



د/ محمد محمد داود

عميد معهد

معلمي القرآن الكريم

بالقاهرة

والخبير بمجمع اللغة العربية

«القاهرة»

منتدى سور الأزبكية

www.books4all.net

دار المنارة

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

<https://www.facebook.com/books4all.net>



كمال اللغة القرآنية

بين حقائق الإعجاز وأوهام الخصوم

نظرات فيما أثير من شبهات وأوهام

د. محمد محمد داود

عميد معهد معلّمي القرآن الكريم بالقاهرة

الخبير بمجمع اللغة العربية

دار المنار

للطببع والنشر والتوزيع

٨ش حسن العدوى - ميدان الحسين

ص.ب ٦١ هليوبوس - القاهرة

تليفكس : ٢٥٩١٥٠٨٥

حقوق الطبع لكل مسلم

* * *

إذا رغبت أي دار نشر في طباعة الكتاب ، فعليها أن
تتصل بالمؤلف لتحصل على نسخة كلك مقلوب مجاناً

هاتف : ٣٧٧٤١١٨٨ / ٠٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ (يونس : ٣٧) .
- ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٦﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٧﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٨﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٩﴾﴾ (الشعراء : ١٩٢ - ١٩٥) .
- ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ (فصلت : ٤٢) .
- ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾ (الصف : ٨) .

مُقَدِّمَةٌ

هذه دراسة لا تفكّر في أن تفرض نفسها كنوع من العقيدة، نقبله بعيون مغمضة وبغير نقاش؛ فالقرآن الكريم نفسه هو الذي أدان الإكراه على الإيمان والعقائد: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

ذلك لأن الإكراه على الإيمان لا يصنع الإنسان المؤمن، فالإيمان لا يُفرض من الخارج، وكم أدان القرآن الكريم كلّ أتباع أعمى يُلقِي بزمامه إلى سلطة لا تستند إلى العقل أو إلى العلم، قال الله ﷻ:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٧٠).

إننا في هذه الدراسة لا ندافع ولا نهاجم وإنما نبين الحق والصواب؛ لأن بيانه أمانة في أعناق أهل العلم.

وسبيلنا في هذا البيان أن نقارع حُجَّة بِحُجَّة ورأيًا برأي، فالآراء يقدح بعضها بعضًا. ملتزمين في كل ذلك بهدي القرآن الكريم في أدب الحوار مع المخالف بالجدال بالتي هي أحسن.

وما أروع هذه العظمة وهذا التسامي، بإتاحة الفرصة كاملة للعقل كي يتأمل ويتدبّر، دون أرضية مُبَيَّنة بافتعال المواقف أو تشويه الصورة أو إلصاق العيب بالمخالف زورًا وبهتانًا.

وإنما هي الرغبة في الحق، والحق وحده، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟! ذلك الذي دعا إليه القرآن الكريم في حوار المخالفين وجدالهم، قال الله تعالى:

﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ: ٢٤).

أسأل الله تبارك وتعالى أن يهدينا جميعاً إلى الحق والصواب، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلِّ ربِّ وسلِّم على من أرسلته رحمة للعالمين، ونزلت عليه القرآن بلسان عربي مبين، والحمد لله رب العالمين.

د/ محمد محمد داود

ليلة الجمعة ١٥ من رمضان ١٤٢٨ هـ

الموافق ٢٧ من سبتمبر ٢٠٠٧ م

ت: ٠٢ / ٣٧٧٤١١٨٨

E.mail: dr.mohameddawood@yahoo.com

مُهَيِّدًا :

الحرب على القرآن

● تاريخ الحرب على القرآن :

- الحرب على القرآن الكريم قديمة حديثة، بدأت منذ البواكير الأولى لنزول القرآن الكريم، واندلعت نارها مع أول مجابهة مع الوثنية، وسجّل القرآن الكريم الجولة الأولى من هذه الحرب على القرآن الكريم وقت نزوله. وسيأتي بيانها في مواضع من هذه الدراسة.

- واستمرت المعركة تشتد حينًا وتهدأ حينًا آخر، ومن الهجمات الشرسة التي تعرّض لها القرآن الكريم زمن الحروب الصليبية تأليف بعض المستشرقين كتابًا بعنوان: دحض القرآن الكريم، كما قاموا بترجمة ألفاظ القرآن الكريم (وليس معانيه) إلى اللغة اللاتينية كمدخل إلى التحريف والتشويه. وماتت كل هذه الجهود وبقي القرآن الكريم مصونًا محفوظًا عن كل سوء.

- والهجمة المعاصرة على القرآن الكريم أشدّ ضراوةً من كلّ ما سبق؛ وذلك من خلال الفضائيات ومواقع الإنترنت، بل قامت أمريكا بتأليف قرآن مزعوم تحت عنوان "الفرقان الحق". والمدّعى في كل هذا أن القرآن الكريم هو الذي انتصر فكريًا؛ لأنّ البؤن شاسع بين كلام الله الذي جعله الله هداية ورحمة وطمأنينة لمن لاذ وآمن به، وبين تخريف البشر وزيفهم.

وسیظل الصراع دائراً بین الخیر والشر . . بین الحق والباطل . .
وتلك سنة الله في خلقه .

- وكان للعلماء في كل عصر جهد مشكور في دفع هذه الشبهات
ودحض هذه الافتراءات، من أبرزها:

○ كتاب (الرد على ابن الراوندي الملحد) للجاحظ (ت ٢٥٥هـ).

○ كتاب (مشكل القرآن) لابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ).

○ كتابا (التمهيد، إعجاز القرآن) لأبي بكر الباقلاني (ت ٤٠٣هـ).

○ كتاب (تنزيه القرآن عن المطاعن) للقاضي عبد الجبار (ت ٤١٥هـ).

○ كتاب (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه) لعباس محمود العقاد.

○ كتاب (شبهات حول الإسلام) لمحمد قطب.

وغير هذه الكتب كثير، بالإضافة إلى ما تعرض له المفسرون في
كتب التفسير، وبخاصة:

○ معاني القرآن للفرّاء (ت ٢٠٧هـ).

○ الكشف للزمخشري (ت ٥٣٨هـ).

○ التفسير الكبير ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (ت ٦٠٤هـ).

○ روح المعاني للألوسي (ت ١٢٧٠هـ).

○ تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور .

○ تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) لمحمد رشيد رضا.

○ مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاوي.

وكذا كتب إعراب القرآن الكريم قديماً وحديثاً، ومن أبرز هذه الكتب:

- معاني القرآن وإعرابه للزجاج (ت ٣١١هـ).
 - إعراب القرآن للنحاس (ت ٣٣٨هـ).
 - التبيان في إعراب القرآن للعكبري (ت ٦١٨هـ).
 - إعراب القرآن الكريم لمحيي الدين الدرويش . . . إلخ.
- وأكثر المطاعن التي تُوجَّه للقرآن اليوم مأخوذة من هذه الكتب ونحوها، غاية ما في الأمر أنهم نقلوا الشبهة وأغفلوا الردّ عليها، مع المبالغة والتنويع في عرض الشبهة حتى تعود الشبهة الواحدة إلى عشرات الصياغات؛ فیهياً لك أنك أمام عشرات الشبهات وليس أمام شبهة واحدة.
- بل زادوا فوق إثارة الشبهات والافتراءات كَيْلَ التُّهم للقرآن ولنبي القرآن سيدنا محمد ﷺ وللمسلمين.
- وبطبيعة الحال فإن التهم والشتائم ليست شبهات، والإعراض عنها خير دواء لها.

لماذا الهجوم على القرآن ؟

هناك دوافع كثيرة للهجوم على القرآن، يمكن إجمالها في دافعين :

● **دافع نفسي:** تزييف الحقائق وتحريفها تعبيراً عن الإخفاق والعجز عن مواجهتها؛ فالعجز عن مواجهة الخصم يتحول - في الأعم الأغلب - إلى الافتراء عليه.

كما أن التلبس بالصفات السلبية دافع لوصف الآخرين بها درءاً للاتهام، وهو ما يعرف عند علماء النفس بالإسقاط، حيث إن الإسقاط حيلة من الحيل الدفاعية التي يلجأ إليها الفرد للتخلص من تأثير التوتر الناشئ في داخله؛ ذلك أن الغلبة إنما تكون للفكر الأقوى، والإسلام - كما يشهد الواقع - عقيدة وأخلاقاً هو الأقوى؛ فقوته ليست من قوة أتباعه كما في العقائد الأخرى، ولكن قوته ذاتية تتأتى من داخله؛ لأنه الحق، لأنه الخير، لأنه السلام والأمن... لأنه الصلة الحقيقية التي لم تتعرض لزييف أو تحريف أو تشويه.

ومن هنا كان إخفاق الغرب على المستوى الفكري المعرفي - على الرغم من تفوقه سياسياً واقتصادياً وعسكرياً - دافعاً إلى الخروج عن العقلانية والحوار المنصف، واللجوء إلى القوة وإلى التشويه والإفساد ظلماً وعدواناً.

● **دافع معرفي:** وهو إخفاق الغرب في مواجهة الإسلام فكرياً على الرغم من هزيمة المسلمين سياسياً واقتصادياً وعسكرياً في الوقت المعاصر؛ فالافتراء على القرآن والطعن فيه في القرون الوسطى جاء نتيجة لإخفاق الكنيسة في مواجهة الإسلام عقائدياً؛ حيث تتهاوى عقيدة التثليث أمام عقيدة الوحدة لله تعالى، يضاف

إلى هذا انعزال الكنيسة عن الحياة، في مقابل أن الإسلام دين ودنيا، فلم يكن أمام الكنيسة من سبيل لصدّ النصارى عن الدخول في الإسلام سوى تشويه رسالة الإسلام.

ولا يزال الغرب حتى الآن يمارس فكرة إقصاء ونبذ الآخر، بمواصلة الطعن في القرآن وفي نبوة النبي محمد ﷺ، في الوقت نفسه ينعت الإسلام بأنه هو الذي يمارس إقصاء الآخر.

فالكنيسة لا تعترف بالإسلام ديناً، ولا بمحمد ﷺ نبياً، ولا بالقرآن كتاباً مقدساً؛ فالقرآن عندهم أكذوبة واختراع محمدي، أو هو إرث يهودي أو نصراني، ومحمد ﷺ نفسه وهمّ تاريخي، والصحابة متوحشون، والمسلمون برابرة ومصاصو دماء وهمج... مع علمهم - بل يقينهم - بأن الإسلام احتوى الآخر واعترف به، بل لا يتم الإيمان للمسلم إلا بالإيمان بجميع الرسل والأنبياء والكتب السماوية التي أنزلها الله على أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

● وهناك مواقف لا تحصى لتأكيد أن علاقة الإسلام بالآخر تقوم على السماحة والعدالة واحترام حقوقه.

من ذلك أن القرآن الكريم أكد أن اختلاف الدين لا يجوز أن يكون مدعاة للظلم أو التغابن، وأنه إذا كانت هنالك أطراف معادية وبيننا وبينها خصام، فذلك كله يجب إبعاده عن مقتضيات العدالة، قال تعالى:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٨).

ولطالما احتكم مسلمون وغير مسلمين إلى القضاء الإسلامي؛ فكانت العدالة تفرض نفسها دون تفرقة بين الأطراف المتنازعة، يشهد لذلك عشرات المواقف العملية في تاريخ الحضارة الإسلامية، ومن ذلك ما سجّله التاريخ عن عمرو بن العاص رضي الله عنه عندما كان والياً على مصر في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه واشتبك ابن عمرو مع أحد المصريين، وأغراه سلطان أبيه فضرب الرجل، ومصر يومئذٍ حديثة عهد بالفتح، وكان المنتظر أن يستكين المضروب لابن القائد الفاتح الذي هزم أكبر دولة في الأرض، لكن المجني عليه كان يأنس العدالة في الإسلام وحكمه، فأقسم ليلغنّ شكواه إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، لكن الولد الذي ضربه وجد في هذا حماقة فقال له: افعل، فلن تضيرني شكواك، أنا ابن الأكرمين!

وبينما كان عمر بن الخطاب بين خاصّته وعمرو بن العاص وابنه في مجلسه، والمدينة غاصّة بالوفود في موسم الحج، تقدّم المصري المظلوم وقال لعمر: يا أمير المؤمنين، إن هذا - وأشار إلى ابن عمرو - ضربني ظلماً، ولما توعدته بالشكوى إليك قال: افعل، فلن تضيرني شكواك، أنا ابن الأكرمين!

فنظر عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص نظرة استنكار وقال له هذه الكلمة العظيمة: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!". ثم توجه إلى الشاكي وناولوه سوطه وقال له: اضرب ابن الأكرمين كما ضربك!

لقد أنصف سيدنا عمر رضي الله عنه الإسلام بهذا الحكم.

الفكر الاستشراقي والهجمة على القرآن:

لعلّ من الإنصاف الذي أرساه القرآن أن نعلن أن المستشرقين ليسوا سواءً، فمنهم من وقف على الحق وأنصفه، ومنهم من أساء واعتدى. وإن كنا نخص بالعرض هنا نماذج أساءت واعتدت، فإننا سنعرض في مواضع أخرى من الكتاب نماذج مشرقة عرفت الحق وأنصفته حتى وإن لم تؤمن به.

ومن الفكر الاستشراقي الذي أسهم في الهجمة على القرآن الكريم من خلال الدراسات القرآنية هذه النماذج التي يظهر من عرضها حجم العداء للقرآن:

(١) كتاب تيودور نولدكه: (تاريخ القرآن) Geschichte des Qorans، وهو من أهم الكتب التي ألفها المستشرقون في تاريخ القرآن الكريم، وقد تأثر به وبتأثيره من جاء بعده، وأصبح هذا الكتاب إنجيل المستشرقين في مرجعية الدراسات القرآنية^(١).

(٢) كتاب جولدتسيهر بعنوان^(٢):

Die Richtungen der Islamtschen Koranauslegnug

(٣) كتاب جون وانسبرو بعنوان:

Quranic studies: Sources and methods of scriptural Interpretation.

(١) ترجم الكتاب إلى العربية .

(٢) ترجم الكتاب إلى العربية بواسطة د . عبد الحليم النجار، تحت عنوان (مذاهب التفسير الإسلامي) .

دراسات قرآنية: مصادر الكتب المقدسة وطرق تفسيرها .
 ويُعدُّ هذا الكتاب من أخطر كتبه؛ حيث تأثر به جانب كبير ممن
 جاءوا بعده في البحث القرآني أو التاريخ الإسلامي عامة .
 ومزاعم وانسبرو التي أثارها في كتابه تهاوت أمام الدراسة
 العلمية التي قام بها الباحث: سعد بن عبد الله بن عبد العزيز الرشيد
 التي تحمل عنوان "كتابات إسلامية من مكة المكرمة" ، حيث برهن
 الباحث على أن النقوش القرآنية التي وجدت مكتوبة على الصخور
 بمكة المكرمة تثبت بشكل قطعي فساد نظرية وانسبرو التي تزعم أن
 القرآن الكريم لم ينتج بمكة .

٤) كتاب دون ريتشاردسون بعنوان: (٢٠٠٣): Secrets of the
 Koran أسرار القرآن "

والكتاب يخلط بين الدراسات القرآنية والسياسية .

٥) كتاب نيل روبنسون بعنوان:

Discovering the qura'n: A contemporarg Approach to a veiled
 text. اكتشاف القرآن: مقارنة معاصرة لنص محجب

٦) كتاب كريستوف لوكسنبورج بعنوان:

Die syröaramaische Lesart Des Koran , Ein Beitrag zur
 Entschlusselung der Qur'an sprache.

قراءة سريانية - آرامية للقرآن: مساهمة في تحليل لغة القرآن .
 وكريستوف هنا - في الأعم الأغلب - اسم مستعار أو وهمي ،
 وهي ظاهرة شاعت في السنوات الأخيرة في الهجوم على القرآن

والإسلام؛ وربما كان مردُّها إلى الخوف على المؤلف الحقيقي من رد الفعل الإسلامي ضد المتطاولين على القرآن.

(٧) كتاب ابن وراق بعنوان:

لماذا أنا لست مسلماً؟ Why I am not a muslim ?

ويقدم الكتاب نقدًا لاذعًا وقويًا ضد الإسلام في منهجية علمية في العرض دون الصدق في المضمون.

وهذا غيظ من فيض، أحببت أن أقف بك أخي القارئ - من خلال هذا العرض السريع - على حجم الهجمة الشرسة على القرآن الكريم. ولا أجد وصفًا أصدق ولا أبلغ في التعبير عن هذه الافتراءات من كلمة العلامة الأستاذ محمود محمد شاكر^(١):

"لم يكن غرض العدو أن يقارع ثقافة بثقافة، أو أن ينازل ضللاً بهدى، أو أن يصارع باطلاً بحق، أو أن يمحو أسباب ضعف بأسباب قوة، بل كان غرضه الأول والأخير أن يترك في ميدان الثقافة في العالم الإسلامي جرحى وصرعى لا تقوم لهم قائمة، وينصب في أرجائه عقولاً لا تدرك إلا ما يريد لها هو أن تعرف، فكانت جرائمه في تحطيم أعظم ثقافة إنسانية عرفت إلى هذا اليوم، كجرائمه في تحطيم الدول وإعجازها مثلاً بمثل. وقد كان ما أراد الله أن يكون، وظفر العدو منّا بما كان يبغي ويريد".

(١) في كلمة عن إعجاز القرآن ضمن مقدمة لكتاب مالك بن نبي "الظاهرة القرآنية"، ترجمة أستاذنا الدكتور عبد الصبور شاهين، ص ٢١.

● القرآن يزداد تألقاً وقوة في وجه الافتراءات :

من يستعرض تاريخ القرآن الكريم عبر الزمان والمكان يجد أن من بين خصائص هذا الكتاب التي تصل إلى حد الإعجاز : أنه كلما اشتد الهجوم عليه من معارضيه ومنكريه ازداد القرآن تألقاً وقوة ؛ فحقائق القرآن الخالدة تدحض الزيف والافتراء وكل ما يشره أعداء القرآن من شبهات . . . إنه بحق كما أخبر الله تعالى عنه : ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت : ٤٢).

وتقوم آيات القرآن على إقناع العقل وطمأنينة القلب وفضح الزيف والافتراء حتى لا يبقى أمام المتمرد إلا أحد أمرين : إما أن يؤمن عن بيّنة وإما أن يكفر عن بيّنة .

القرآن وحده هو القادر على محاورة المتمرد . . لأنه خطاب الخالق لخلقه وهو ﷻ أعلم بهم ، قال الله تعالى :

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك : ١٤).

وفي القرآن نماذج هادية في محاورة المتمرد ، من ذلك الحوار القرآني مع النمرود ، قال الله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة : ٢٥٨).

ولأن القرآن الكريم كتاب هداية ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ (البقرة : ١٨٥) . . فكل آية ، بل كل كلمة ، بل كل

حرف فيه يحمل سرًا من أسرار الهداية الربانية التي أودعها الله في آياته، فإذا مست القلب وتأملها العقل وجد فيها الملاذ الآمن والحقيقة الخالدة فأسرع مستجيبًا لهدي الآيات بعد أن ملأه الإيمان والتصديق بها.

وإني لَعَلَى يقين - إيمانًا وعقلًا وتجربةً - بأن الهجمة المعاصرة على القرآن ستعود لصالح القرآن، كما كانت الغلبة للقرآن في كل الهجمات السابقة، والنصر دائمًا بالنتائج؛ فهي:

أولاً: تلفت الانتباه إلى القرآن الكريم، فتدفع العقول الرشيدة إلى البحث وإلى التأمل. . وكلما بحثت وتأملت ازدادت قربًا من القرآن؛ لأنه الحق والصدق. . لأنه من الله، تنزيل رب العالمين، ليس ككلام البشر الذي كلما تأمله الإنسان أدرك ما فيه من نقص وأصابه الملل. إنه كلام الله. . آياته الهادية المعجزة. . إنه الكمال المطلق، لقد أتوا إلى القرآن متشككين، وما لبثوا أن مست الهداية قلوبهم فعادوا مؤمنين. وتبارك من هذا كلامه!!!

وثانيًا: توقظ المسلمين من غفلتهم أن ينصفوا القرآن من أنفسهم، بعد أن هجروا القرآن عملاً وسلوكًا وأخلاقًا. . ويصححوا أحوالهم حتى يكونوا مرآة صادقة لعظمة هذا الكتاب، وتتحقق فيهم الخيرية التي أرادها الله لهم بالقرآن: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠)

إن إحساس المسلمين بالخطر جعلهم يلوذون بالله ويزدادون تمسكًا بالقرآن ورجوعًا إليه.

وفي كل الجولات السابقة بين القرآن وشبهات المنكرين

وافتراءات الحاقدين كانت الغلبة والهيمنة للقرآن. وذلك بداية من لحظة نزوله ومحاولات الكافرين التشكيك فيه ومحاوله صرف الناس عن سماعه، قال تعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (فصلت: ٢٦).

وكانت المواجهة الحاسمة من الآيات الإلهية التي أقامت هذا التحدي لهم، قال تعالى:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٢٣).

ولمّا لم يفلح فرسان البلاغة في التشكيك لجأوا إلى أسلوب آخر هو أسلوب المساومة، فحاولوا مساومة النبي ﷺ على أن يبدل هذه الآيات ويأتي بآيات تشبع أهواءهم، قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَنْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (يونس: ١٥).

● ولقد عصم الله نبيه ورسوله سيدنا محمداً ﷺ من نسيان حرف أو كلمة أو طريقة أداء لآية من آيات القرآن الكريم، وتوضح الآيات أن النبي ﷺ كان حريصاً كل الحرص أثناء تلقي القرآن من أخيه جبريل عليه السلام على التردد، حتى جاءه الأمر الإلهي الذي يحمل في صحبته البشري، قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) ﴿إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ﴾ (١٧) (القيامة: ١٦ - ١٧).

وقال تعالى :

﴿سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴿٦﴾﴾ (الأعلى : ٦).

و"لا" هنا نافية وليست ناهية بدليل إثبات الياء في آخر الفعل المضارع (تنسى)، والمعنى : أننا سنقرئك قراءة من حسنها وعظمتها وبركتها أنك لا يمكن أن تنسى بعدها أبداً.

لتؤكد الآيات لكل متدبر أن الدين ليس شأنًا بشريًا، ليس صناعة عقلية وإنما هو تنزيل من رب العالمين.

وكان المشركون يعلنون عن عجزهم عن مواجهة القرآن بقولهم : إنه سحر، كما حدث عندما أرسلوا لسان الفصاحة والحكمة عتبة بن ربيعة إلى النبي ﷺ، فلمّا استمع إلى الآيات ومست الهداية قلبه رجع إلى قريش وأخبرهم : إنه ليس بكلام بشري... فقالوا : سحرك يا أبا الوليد!

وتمر السنون بل القرون ويتعرض القرآن لحملة أخرى من الإساءة والتشكيك والافتراءات وإثارة الشبهات وذلك أثناء الحملة الصليبية على الشرق الإسلامي، وقام فريق كبير من المستشرقين بالتأليف ضد القرآن... فألفوا كتابًا بعنوان "دحض القرآن" وقام فريق آخر بترجمة النص القرآني نفسه (وليس المعاني) إلى اللاتينية ليكون ذلك خطوة إلى التحريف والتغيير فيه والتبديل. وماتت كل هذه الجهود وظل القرآن يزداد تألقًا وقوة وعظمة.

ناهيك عن الأحاديث المختلفة والملفقة التي دسها أعداء الإسلام في السنة النبوية ضد القرآن بصورة مباشرة أو غير مباشرة للإساءة إلى كتاب الوحي، وقد نبّه عليها علماء السنّة وكشفوا زيفها.

وفي واقعنا المعاصر يتعرض القرآن لهجمات شرسة على مستوى الأفراد والمؤسسات العلمية والاجتماعية، بل وعلى مستوى الأمة والدولة.. بإثارة الشبهات وتأليف قرآن مزعوم.

ولعلّ من المناسب في هذا السياق أن نلفت الانتباه إلى خصوصية من الخصائص التي انفرد بها القرآن الكريم، وهي أنه الكتاب الوحيد من بين الكتب السماوية الذي يحفظه أهله في صدورهم عن ظهر قلب، وهذه النسخة الفريدة المحفوظة في الصدور، والتي يتم تناقلها بين المسلمين تلاوةً عن طريق التلقّي شفاهةً، هذه النسخة لا يمكن أن تمسّها يد التحريف والتزييف من الأعداء. وهذه النسخة المتفرّدة في صدور الحفظة تبطل كل الجهود التي تُبذل لتحريف نسخة المصحف المكتوبة. وسبحان الله القائل:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

ومعلوم أن السر في حفظ القرآن الكريم على هذا النحو المعجز لا يعود إلى جهد البشر، ولا إلى مكانة العرب والمسلمين، فقد مرت الأمة بأزمات عديدة ومراحل انكسار كالمحنة المعاصرة. ولو كان حفظ القرآن منوطاً ومرتبطة بهم لذهب القرآن من مئات السنين.. وإنما حفظ القرآن على هذا النحو المعجز الخالد يعود إلى رب القرآن.. إلى الله رب العالمين.. إلى خالق الكون.. عالم السر والعلن.. القادر على كل شيء.. قال تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

● كمال اللغة القرآنية ومنتهاى تمامها في عيون الخصوم:

ما دمنا ملتزمين بروح الإسلام في الحوار والموضوعية في البحث عن الحقيقة لا اختراع الحقيقة وتلفيق الدراسات والبحوث لإثباتها، ما دمنا كذلك؛ فإنه يعنُّ لي أن أعرض وجهة نظر هؤلاء البعض في حقيقة (كمال اللغة القرآنية ومنتهاى تمامها)، فهم يتساءلون:

- هل بالفعل أعجز القرآن العرب عن الإتيان بمثله؟!

- هل كان القرآن مثلاً لعربية بلا شوائب أو أخطاء لغوية؟!

- ثم أيهما يحكم على الآخر: العربية، أم القرآن؟!

ونُجيب بكل ثقة ويقين:

نعم، لقد أعجز القرآن العرب عن الإتيان بمثله، بكل ما تحمله كلمة الإعجاز من معاني التحدي والغلبة، ولو كانوا يستطيعون لفعلوا لكنهم لم يفعلوا.

نعم، القرآن مثال لعربية بلغت منتهاى النقاء والصفاء والكمال والجلال، ظهرت في نظمه، وخصائص سياقه، ولفظه، وبدائعه في المقاطع والفواصل ومجاري الألفاظ ومواقعها؛ فقد كان القرآن أحد العوامل الحاسمة في إيمان من آمنوا حينما أشرقت الدعوة يوم لم يكن لمحمد ﷺ حَوْل ولا طَوْل، ويوم لم يكن للإسلام قوة ولا مَنعة.

نعم، إن القرآن هو الحاكم على العربية والمهيمن عليها، فلقد شاء الله أن يجعل العربية لغة الوحي المنزَّل لتصبح لغة دين، ثم كتب لها الحفظ والخلود بحفظ القرآن وخلوده، وحفظ القرآن ليس مهمة بشر، بل هي أمر الله وحده:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

وفي السطور التالية بيان لهذه الحقائق:

لقد نزل القرآن الكريم حجةً على رسالة النبي ﷺ، وبرهاناً على صدق دعوته، وقد بلغ غاية الفصاحة ونهاية البلاغة بين قوم لا يخلون في جملتهم من شاعر فحل، أو خطيب مصقع؛ ومن هنا فقد كان القرآن الكريم جامعاً لفنون البلاغة، حاوياً لأطراف البيان والفصاحة، محكماً في نظمه، حتى إنك تحسب ألفاظه لجمالها وروعته منقادةً لمعانيه، فإذا ما تغلغلت فيه وجدت معانيه منقادةً لألفاظه، فإذا ما رجعت البصر مرةً ومرة فإنك ستظل متردداً بين انقياد معانيه لألفاظه وانقياد ألفاظه لمعانيه؛ حتى تؤمن أخيراً بأنك تقرأ كلاماً ليس من كلام البشر.

ولا شك أنك بهذا إنما تجدد الموقف الذي وقفه العرب أمام روعة نظمه موقف الإعجاب والذهول والحيرة، ولكن سوء نيتهم وخبث طويتهم قد أغلق عيونهم عن الاستجابة لهذا النور المنبثق الوضاء.

ولقد عبر غير واحد من زعمائهم عن هذا الموقف في مثل قول عتبة بن ربيعة حين سمع من رسول الله ﷺ الآيات الأولى من سورة فصلت ثم عاد إلى قومه فسألوه: ما وراءك يا أبا الوليد؟ فقال: "ورائي أني سمعت قولاً ما سمعت مثله قط، ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بين الرجل وبين ما هو فيه".

وفي مثل قول الوليد بن المغيرة: "والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يُعلَى عليه".

والقرآن الكريم معجزٌ لأن النبي ﷺ قد تحدّى به ولم يُعارض، وآيات التحدي كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ (الطور: ٣٤)، فكان التحدي بجميع القرآن الكريم في هذا الزمن، فلما ظهر عجزهم عن ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ﴾ (هود: ١٣)، ثم لما ظهر عجزهم عن هذا المقدار أيضاً نزل قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ (البقرة: ٢٣)، حيث تحدّاهم بمقدار سورة منه، فلما ظهر عجزهم عن الإتيان بمثل أقصر سورة لزمتهم الحجة لزوماً واضحاً، وانقطعوا انقطاعاً فاضحاً، يقول الفاضل التفتازاني في شرح المقاصد:

"إن الرسول ﷺ تحدّى بالقرآن الكريم ودعا إلى الإتيان بسورة من مثله مصاقع البلغاء والفصحاء من العرب وغيرهم، مع كثرتهم كثرة حصى البطحاء، وشهرتهم بغاية العصبية والحمية الجاهلية، وتهالكهم على اللامبالاة والمباراة وركوب الشطط في هذا الباب، فعجزوا حتى آثروا المقارعة على المعارضة، وبذلوا المهج والأرواح دون المدافعة، فلو قدروا على المعارضة لعارضوا، ولو عارضوا لنقل إلينا" (١).

(١) إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، د. حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مطابع الأهرام، الكتاب الرابع، ١٣٩٠هـ، ١٩٧٠م، ص ٨٠٧.

أجل، لقد سجّل التاريخ هذا العجزَ على أهل اللغة أنفسهم في عصر نزول القرآن. وما أدراك ما عصر نزول القرآن؟ هو أزهى عصور البيان العربي، وأرقى أدوار التهذيب اللغوي، وهل بلغت المجامع اللغوية في أمة من الأمم ما بلغته الأمة العربية في ذلك العصر من العناية بلغتها، حتى أدركت هذه اللغة أشدّها؛ وتَمّ لهم بقدر الطاقة البشرية تهذيب كلماتها وأساليبها. . ما هذه الجموع المحشودة في الصحراء، وما هذه المنابر المرفوعة هنا وهناك؟ إنها أسواق العرب تُعرض فيها أنفُسُ بضائعهم، وأجودُ صناعاتهم، وما هي إلا بضاعة الكلام وصناعة الشعر والخطابة، يتبارون في عرضها ونقدها، واختيار أحسنها والمفاخرة بها، ويتنافسون فيها أشد التنافس، يستوي في ذلك رجالهم ونسأؤهم. وما أمرُ حسان والخنساء وغيرهما بخافٍ على متأدّب.

فما هو إلا أن جاء القرآن. . . وإذا الأسواق قد انفضت، إلا منه. وإذا الأندية قد صَفِرَت، إلا عنه. فما قدر أحدٌ منهم أن يُباريه أو يُجاريه، أو يقترح فيه إبدال كلمة بكلمة، أو حذف كلمة أو زيادة كلمة، أو تقديم واحدة وتأخير أخرى. ذلك أنه لم يسدّ عليهم باب المعارضة بل فتحه على مصراعيه، بل دعاهم إليه أفرادًا وجماعاتٍ، وكرّر عليهم ذلك التحدي في صور شتى، متهمًا بهم، متنزلًا معهم إلى الأخف فالأخف: فدعاهم أول مرة أن يجيئوا بمثله، ثم دعاهم أن يأتوا بعشر سور مثله، ثم أن يأتوا بسورة واحدة مثله، ثم بسورة واحدة من مثله^(١)، وأباح لهم في كل مرة أن يستعينوا بمن شاءوا ومن

(١) انظر كيف تنزل معهم في هذه المرتبة من طلب المماثل إلى طلب شيء مما =

استطاعوا، ثم رماهم والعالم كله بالعجز في غير موارد فقال وَعَلَى:

﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلٰی اَنْ يَّاتُوْا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُوْنَ بِمِثْلِهٖ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِیْرًا﴾ (الإسراء : ۸۸).

وقال تعالٰی: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا
النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٤).

فانظر أي استفزاز!! لقد أجهز عليهم بالحكم البات المؤبد في قوله: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾، ثم هددهم بالنار، ثم سواهم بالأحجار. فلعمري لو كان فيهم لسان يتحرك لما صمتوا عن منافسته وهم الأعداء الألداء، وأباة الضيم الأعزاء، وقد أصاب منهم موضع عزتهم وفخارهم، ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته، ولا سُلماً يصعدون به إلى مزاحمته، بل وجدوا أنفسهم منه أمام طود شامخ، فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً.. حتى إذا استياسوا من قدرتهم واستيقنوا عجزهم ما كان جوابهم إلا أن ركبوا متن الحتوف، واستنطقوا السيوف بدل الحروف. وتلك هي الحيلة التي يلجأ إليها كل مغلوب في الحجة والبرهان، وكل من لا يستطيع دفعاً عن نفسه بالقلم واللسان.

= يماثل . كأنه يقول : لا أكلفكم بالمماثلة التامة ، بل حسبكم أن تأتوا بشيء فيه جنس المماثلة ومطلقها ، وبما يكون مثلاً على التقريب لا التحديد . وهذا أقصى ما يمكن من التنزل . ولذا كان هو آخر صيغ التحدي نزولاً ، فلم يجيء التحدي بلفظ (من مثله) إلا في سورة البقرة المدنية ، وسائر المرات بلفظ (مثله) في السور التي نزلت قبل ذلك بمكة : فتأمل هذا الفرق فإنه طريف ، وأسأل الله أن يوفقنا وإياكم لفهم أسرار كتابه ، والانتفاع بهدأته وآدابه .

ومضى عصر القرآن والتحدي قائم ليغرب كل امرئ نفسه^(١).

ولعل من خير ما يُساق في علاقة القرآن بالعربية ما ذكره أستاذنا الدكتور عبد الصبور شاهين^(٢) من أن أفضل ما كان يُميّز الإنسان العربي في جزيرته أنه كان إنساناً فطرياً لم تستهلكه أساطيرُ موضوعة، ولا حضاراتُ قاهرة، لقد كان إنساناً يملك إرادته، وبقية دين إبراهيم مع فطرته السليمة، ولغته الكاملة، وبيانه النافذ، وقابلياته التي أعده الله بها ليزكيه بالكتاب، وليكمل له الدين، وليتم عليه النعمة بالإسلام، وكانت لغته هي شغله الشاغل، فهو يعكف عليها في مواسم الحج متفنناً في تصريف القول بها وانتقاء ألفاظها، وصقل أشعارها وحفظ نصوصها، فلقد كان يدرك أن عبقريته وتفوقه ومستقبله ونقاءه في لغته العربية التي انتسب إليها فصار بها عربياً أي مبنياً، وصار من حوله رغم حضاراتهم "عجمًا" غير مبينين!

ومن ثم كانت الآية القرآنية: أن هذه اللغة التي عكف عليها العرب، لتجويدها وامتلاك ناصية المعاني الإنسانية والواقعية بها، قد تنزلت من عند الله بكلامه لتعبر عن أقصى وأحب ما يبلغ إليه إدراكهم، وما تدبره عقولهم في مستوى لا تبلغ قدرتهم على محاكاته، ومع ذلك فإن الألفاظ واحدة، والأدوات واحدة، وأشكال التصريف واحدة، أي إن المادة اللغوية هي هي، ومعاني

(١) النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، د. محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، ط ٤، ١٩٧٧م، ص ٨٤ - ٨٥

(٢) مع القرآن الكريم: رؤية مستنيرة لحقائق الإيمان والحياة، المقاولون العرب، العدد الرابع، ط ١٤٠٠هـ / ١٩٧٩م

الألفاظ هي هي، ولكنَّ تشكيل الألفاظ والمعاني والتراكيب والإيقاع بالوحي الإلهي هو الآية العظمى فوق كل منال.

فكيف اتسعت العربية بحروفها وكلماتها لهذا التنزيل الإلهي بالقرآن العظيم، دون أن تضيق عنه، أو تعيى بحمله، وخلوده، فكأنما هو بيان يتفجر من قلبها؟! تلك صنعة الخالق، قال جل ثناؤه:

﴿الزَّخْرُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝﴾ (الرحمن: ١ - ٤).

ولقد كان نزول القرآن بالعربية حدثاً فريداً في تاريخ الدين والإنسان، ذلك لأن ضرورة استمراره آية باقية لدعوة الإسلام. حققت من الناحية التاريخية استمرار العلاقة بينه وبين بيان العربية، بحيث يظل هذا البيان قرآنياً يفسر القرآن ويحيى بالقرآن.

وكان من الممكن لو لم ينزل القرآن أن يتغير بيان العربية بمرور الزمن وتتابع الأجيال، ثم تبدأ اللهجات العربية التي كانت متعددة بتعدد القبائل أن تستقل لتصبح من جيل إلى جيل لغاتٍ مستقلة، لا علاقة بينها، إلا ما يكون من علاقة بين لغات الفصيحة الواحدة، كما حدث للهجات الساميين التي أصبحت لغاتٍ مستقلة، أي أن نزول القرآن قد كفل مجموعة من النتائج في وجود اللغة العربية:

أولها: أن العرب جميعاً تشبثوا باللغة الفصحى لأنها لغة الوحي والعقيدة.

ثانيها: أن اللهجات العامية اقتصرت على حيز ضيق جداً من ممارسة الحديث الخاص بين الأفراد مع اتساع مجالات استخدام الفصحى القرآنية.

ثالثها: أن مرور الزمن وتتابع الأجيال لم يكن له من تأثير على بقاء اللغة العربية الفصحى واستقرارها إلا مزيداً من تفاعلها مع القرآن بحيث بقيت لغة الأمة العربية الخالدة بخلود القرآن.

رابعها: أن نطاق اللغة العربية قد اتسع بحيث امتد إلى كل المسلمين في أنحاء العالم، فهم يقرأون القرآن بالعربية، ويتعبدون بحروفه، ويتخذون طريقة كتابته وسيلةً لتسجيل لغتهم، وهذا في حد ذاته نصرٌ حققه القرآن للعربية، على مستوى عالمي، ونعمةٌ أنعمها الله في نفس الوقت بالإسلام ولغته على تلك الشعوب.

خامسها: وهذا هو الأهم، كانت آية القرآن اللغوية إعلاناً عن صلاحية اللغة العربية علمياً وإنسانياً لحمل وترشيد مفاهيم الحضارة، والتعبير عنها مهما يكن مستواها؛ لأن اللغة التي تتسع للقرآن وآياته بهذا الاقتدار البالغ، لا بد أن تكون أقدر على التعبير عن أي مستوى من مستويات تقدم الإنسان عبر كل العصور.

• والقرآن هو الحاكم على العربية والمهيمن عليها، فلقد شاء الله أن يجعل العربية لغة الوحي المنزل لتصبح لغة دين ثم كُتب لها الحفظ والخلود بحفظ القرآن وخلوده، وحفظ القرآن ليس مهمة بشر، ولا يتحقق بوسيلة من وسائل البشر، بل بأمر الله وحده:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُمُ الْحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

فقد كان ذلك وعد الله تعالى بحتمية حفظ القرآن الكريم - وعداً بحفظ اللغة العربية، وقد استند هذا الأمر المتحقق إلى أسباب أهمها^(١):

(١) د . رشاد محمد خليل، مدرس الثقافة الإسلامية بكلية التربية، جامعة =

(١) قيام مناهج الاستدلال في القرآن الكريم على أساس من اصطلاح العرب وأسلوبهم في النظر والتفكير، وبذلك أصبحت معرفة اللغة العربية الفصحى شرطًا لصحة الاستدلال في حياة الأمة العربية، وحياة المسلمين.

(٢) اتجه القرآن الكريم بخطابه للبشر من خلال خطابه للعرب، فكانت معرفة الحياة العربية شرطًا لمعرفة منازل هذا الخطاب القرآني.

(٣) منذ نزل القرآن الكريم كانت تلاوة القرآن، وحفظه، أو الميسور منه، أساسًا لصحة العبادة أو صحة العمل بالشرع، وبذلك أصبحت معرفة اللغة العربية الفصحى شرطًا لصحة الإيمان وصحة العمل بشريعة الله، والدين الحق.

ولقد أدّى هذا الاقتران الحميم بين القرآن ولغة العرب إلى مجاهدة المسلمين العالمية لجمع هذه اللغة الشريفة وتدوينها، وتقنينها، وبذلك تيسر حفظ العربية بفضل هذا الجهد العظيم، الذي قاوم به علماء اللغة كافة المحاولات المعادية التي بذلت لإخراج هذه اللغة عن أصولها.

كذلك كان من وسائل حفظ هذه اللغة وصونها عن آفات الضياع، ما وضعه هؤلاء العلماء الأجلاء من شروط لصحة رواية اللغة شبيهة بتلك الشروط الموضوعية لحفظ الحديث، فتكلموا عن التواتر في اللغة وشروطه، وتكلموا عن السماع أو القراءة على الشيخ،

وتكلموا عن الإجازة والمكاتبه، وتكلموا عن القياس اللغوي، ووضعوا له الشروط الضابطة، وتكلموا من الأخذ من اللغات الأخرى، وعن تعريب الغريب وطرقه، وتكلموا عن الكلمات المولدة، ومتى تؤخذ ومتى تُرد. وتكلموا عن اللهجات: صحيحها، وسقيمها، ومتروكها، وشاذها، ومنكرها. . إلى آخر هذه المباحث اللغوية التي حفلت بها كتب اللغة، والتي تم بها تمهيد الطريق أمام نمو اللغة العربية واتساعها على نسق العرب وشرطهم في بيانها، ودون إخلال بالأصول الراسية التي قامت عليها.

وكان من نتيجة هذا الجهد العظيم أن استمرت الصلة بين أصول اللغة العربية وبين فروعها وروافدها الجديدة، واتسعت بذلك لكافة الثقافات الأجنبية، كما اتسعت لكافة العلوم التي كشف عنها المسلمون، ولجميع المصطلحات العلمية التي أبدعوها لها في عصور ازدهار حضارتهم العربية الإسلامية. وذلك بغير أن تنقطع صلة آخرها بأولها، أو جديدها بقديمها. وكذلك وقع التواصل بين أجيال الأدباء والشعراء فأصبحنا نقرأ شعر امرئ القيس وزهير وليد في القديم، كما نقرأ شعر جرير والفرزدق والمتنبي بعدهم، وكما نقرأ شعر البارودي وشوقي وحافظ في العصر الحديث، رغم تبدل الظروف وتراكم المتغيرات، ورغم الحرب الشرسة التي يشنها أعداء العرب والمسلمين، والطامعون في أرضهم ومواردهم في العصور الحديثة، على لغتهم العربية وقرآنهم، ومع كل ذلك فما زلنا قادرين على الاستمرار على نفس الطريق الرحب الذي مهده لنا علماؤنا الأولون.

من كل هذا نرى أن القرآن الكريم كان في حكمة الله هو الحافظ لبقاء اللغة العربية صحيحة وسليمة بخصائصها ، وفق أصولها ، على مرّ الزمن .

في ضوء هذه الحقيقة أصبح من اليقيني في الفكر الإسلامي المستنير أن بقاء اللغة العربية وفعاليتها في وحدة وتماسك وتقدم الأمة العربية رهن بتمسكها واعتصامها بالقرآن الكريم .

ومعنى هذا أن كلّ محاولات التغريب لهذه الأمة ، لعزلها عن هذا الكتاب العربي المبين ، الذي قام عليه ذكر العرب وبقاؤهم واستمرارهم إلى اليوم في التاريخ - إنما هو جهل أو تجاهل لحقيقة هذه الأمة ، وإنكار أو تنكّر لطبيعة هذه المقومات التي قامت وتقوم وتستمر في الوجود على أساسها ، وهي طبيعة منذ فجر التاريخ " دينية " غير وضعية ، بمعنى أنها تنزيلية بوحى الله ، ويقينية عبر العصور والأحقاب ، وليست فلسفية وضعية تتناقض وجهاتها وادعاءاتها عبر هذه العصور والأحقاب مع الواقع واليقين والعلم .

إن هؤلاء الذين يحاولون هذه المحاولات في هذا العصر ، كما حاولها الكثيرون قبلهم في غير هذا العصر - يجهلون هذا الارتباط الوثيق بين اللغة العربية والقرآن الكريم ، الذي جعل الله به من هذه اللغة الدينية والدنيوية مقومًا أساسيًا في حياة العرب وقوميتهم - إنما هو في سنن الله الشاملة لحياة كل البشر ليس أساسًا فقط لبقاء اللغة العربية ، وبقاء العرب بقاء القرآن الكريم وبقاء الإسلام ، وإنما هو أساس في نفس الوقت لبقاء الجنس البشري كله - إلى ما شاء الله - على هذا التكامل والتقابل الذي لا تقوم البشرية بغيره ، في تدافعها

المستمر بين الخير والشر، والإيمان والإلحاد، والحق والباطل،
والعربية والعجمة، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٢١).

فالقرآن رسالة السماء إلى الأرض، فمن أراد أن يفهمه على هذا
النهج فقد وقف بنفسه على مواطن العظمة، ومواضع الإعجاز فيه.
ومن أراد أن يعرف أثره في اللغة العربية فليُنظر ذلك الأثر في حياة
المسلمين عقيدة وسلوكًا، ليرى ذلك واضحًا وجليلًا.

قد تَقْصُر الأفهام عن المراد من آية من آياته، فَيُظَنُّ أنها جاءت
على غير ما تعارف عليه أهل اللغة. وقد يَعْجِزُ البصر عن الوصول
إلى إعجاز نحوي جاء في أثناء آية، فيذهب الظن إلى أن القرآن قد
تجاوز قواعد اللغة وما تعارف عليه أهلها، وهذا - لا شك - قصور
وعجز في الإنسان عن إدراك لغة القرآن وأساليبه البيانية، فهو كتاب
ربِّ العالمين، وهو الكمال المطلق، الذي يُغري أصحاب العقول
الرشيدة أن يتوفَّروا لاستكشاف آفاق الكمال القرآني.

وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ
وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ

الفصل الأول

ويضم:

- تصنيف الشبهات
- شبهات نحوية

تصنيف الشبهات

لم يسلك مُدَّعو الشبهات منوالاً واحداً، ولا اتَّبَعُوا منهجاً بعينه في إثارة شبهاتهم وتصنيفها، واقتضى المنهج العلمي تصنيف هذه الشبهات اللغوية تصنيفاً يتناسب مع موضوعها، وذلك على النحو التالي:

(١) شبهات نحوية:

وَجُلُّ هذه الشبهات يدور حول المطابقة: في العدد، وفي النوع، كمطابقة الخبر للمبتدأ، والضمير لما يعود عليه، والفعل لفاعله، والنعت لمنعوته، والعدد لمعدوده، والحال لصاحبها... إلخ.

وهناك شبهات نحوية مصدرها تَوَهُّم وجود أخطاء في إعراب بعض الكلمات القرآنية: كنصب ما حقه الرفع، أو رفع ما حقه النصب... إلخ.

وهناك شبهات تدور حول ادِّعاء وجود لبس في المعنى ناشئ عن خلل أو اضطراب نحوي: في عَوْد الضمائر، والانتقال من نوع إلى آخر (كالانتقال من ضمير المخاطب إلى ضمير الغائب أو العكس)، ووضع الماضي موضع الحاضر أو العكس، أو تعدد الأدوات (كأسماء الإشارة، حروف الجر، حروف العطف... إلخ).

(٢) شبهات صرفية:

ولم نجد في هذا الباب سوى ثلاث شبهات كلها حول: استعمال جمع القلة في موضع جمع الكثرة، أو العكس.

(٣) شبهات دلالية:

وأكثرها ادّعاءات حول: وجود ألفاظ مستخدمة في غير معناها، وألفاظ غريبة، وألفاظ أعجمية، وادّعاء وجود أخطاء في بعض الأعلام مثل (سينين - إلياسين - آزر)، واختلاف الأسماء للمسمّى الواحد مثل الاسمين: أحمد ومحمد للنبي ﷺ، ومكة وبكة للبلد الحرام.

وكذا ادّعاء وجود ألفاظ خادشة للحياء في القرآن الكريم، مثل: العورة - المني، الترائب، ونحوها.

(٤) شبهات بلاغية:

وأكثرها يدور حول:

- الحشو: أي وجود ألفاظ زائدة على المعنى.
- التكرار: أي تكرار المعنى الواحد بأكثر من صورة لفظية.
- التناقض: كإثبات الشيء مرّة ونفيه مرّة أخرى، أو إطلاقه تارة وتقييده تارة أخرى.

(٥) شبهات عامة:

بعض هذه الشبهات يدور حول الطعن في إعجاز القرآن وفصاحته، والزعم بأن أسلوبه لا يلائم الذوق الغربي، أو أنه لا يخضع لقواعد اللغة.

وبعضها ادّعاءات حول وجود أخطاء إملائية في القرآن، أو عدم جدوى المتشابه من آيات القرآن، أو اختلاف القراءات، وأثره في

اختلاف التشريعات والمعاني، أو أن القرآن ليس محفوظاً، أو أن فيه تناقضات وتعارضات... إلى آخر هذه المطاعن.

وسوف نردُّ على هذه الشبهات ردًّا مفصّلاً - إن شاء الله تعالى - من خلال المباحث التالية:

شبهات نحوية

● المطابقة في العدد:

ساق المشككون عدة مواضع من كتاب الله الكريم، زعموا أنها تفتقد شرطًا من شروط الصحة النحوية، هو شرط المطابقة في العدد، وهي على النحو التالي:

● توهم عدم المطابقة بين الضمير وما يعود عليه:

وذلك بأن يكون الضمير جمعًا والعائد عليه مفردًا، وساقوا على ذلك الآيات التالية:

(١) ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (البقرة: ١٧)؛ حيث عاد الضمير في (بِنُورِهِمْ) على المفرد (الذي)، وكان الصواب في ظنهم أن يقال: ذهب الله بنوره وتركه في ظلمات لا يبصر.

ومردُّ هذا الوهم أن صاحب الشبهة لم يتأمل في نظم الآية الكريمة، ولو أنه تأمل قليلاً لما أورد هذه الشبهة؛ وذلك لأن:

● كلمة (مَثَل) في حد ذاتها تفيد الجمعية.

● كلمة (الذي) في الآية عامة تفيد الجمع: فهذا الاسم الموصول - وإن كان يستعمل للمفرد - يستعمل للجمع أيضًا، مثل شبيهه (مَنْ)، فهو مفرد في اللفظ، جمع في المعنى، وعلى هذا أفرد

الضمير في (حوله) حملاً على لفظه، وُجِّعَ في (بنورهم)، تركهم... (حملاً على المعنى^(١)).

وفي الآية وجه آخر لإفراد الضمير في (حوله)، وجمعه في (بنورهم)، وهو مراعاة حال المشبه لا المشبه به، فالضمير في (بنورهم) عائد إلى المنافقين لا إلى الذي استوقد، رجوعاً إلى الغرض الأصلي، وهو انطماس نور الإيمان عند المنافقين، وتنبهها على الانتقال من التمثيل إلى الحقيقة، وفيه إيجاز بديع كأنه قيل: فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بناره، فكذلك ذهب الله بنورهم^(٢).

وسواء أخذنا بهذا الوجه أم بذاك فليس في الآية أي اضطراب، ولا تناقض بين الضمير وما يعود عليه؛ بل فيها إحكام نظم، ودقة لفظ، وملامح بلاغية رائعة.

(٢) ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ (التوبة: ٣٦)؛ حيث عاد الضمير المفرد في (منها) على الجمع (اثنا عشر). والصواب - في زعمهم - أن يقال: (منهن) ليتفق الكلام مع قوله ﷻ: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾.

والضمير في (منها) يعود على (اثنا عشر)، والضمير في (فيهنّ) يعود على (أربعة)، وهذا موافق تمام الموافقة لما تقرر في قواعد العربية أن ما زاد على العشرة، يُعامل في الضمير معاملة الواحدة المؤنثة؛ فنقول:

(١) الكشف ١ / ١٩٨ - ٢٠٠.

(٢) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ١ / ٣٠٨ - ٣٠٩.

خذ هذه الكتب الاثني عشر فقد قرأتها، ولا تقول: قرأتها.

بينما تعامل العشرة فما دونها - من كلمة "الكتب" - إلى الثلاثة معاملة جمع المؤنث، فتقول: الكتب العشرة (أو الثلاثة) قرأتها. وهذا هو الوجه الأكثر استعمالاً في العربية، ويجوز العكس، ولكنه قليل في الاستعمال^(١)، وقد أثبت الفراء، والكسائي وغيرهما شيوع الوجه الأول الذي جاءت به الآية الكريمة، ومثل الكسائي لذلك بأن العرب تقول فيما دون العشر من الليالي: خَلَوْنَ، وفيما فوقها: خَلَتْ^(٢).

وعلى فرض صحة الوجهين وتساويهما في الاستعمال الفصيح، يكون تنويع الضمير في الآية لوناً من التفنن في التعبير؛ فجاء مرة بضمير الواحدة، وأخرى بضمير جمع المؤنث.

كما أن تنويع الضمير يلفت النظر إلى تأمل معنى الآية، وأن المخصّص بالنهي عن ظلم النفس فيه هو الأشهر الحرم تعظيماً، وتشريفاً لقدرها.

(٣) ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ (التوبة: ٦٢)؛ حيث جاء الضمير في كلمة (يرضوه) مفرداً، والصواب في زعمهم أن يقال: (يرضوهما).

لإفراد الضمير هنا - مع أنه يعود على اثنين - عدة أوجه، نذكر منها: أولاً: إرادة عَوْدِ الضمير على الأول، وهو اسم الجلالة، وفيه

(١) البحر المحيط ٥ / ٣٩.

(٢) التحرير والتنوير، المجلد السادس، ج ١٠، ص ١٨٥ - ١٨٦.

إشارة إلى الجمع بين إرضاء الله ورسوله عن طريق العطف، مع التفريق بين الإرضاءين عن طريق إفراد الضمير وعَوْدِهِ على اسم الجلالة وحده، ومنه قول ضابئي بن الحارث:

وَمَنْ يَكُ أَمْسَى بِالْمَدِينَةِ رَحْلُهُ فَإِنِّي وَقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبٌ

فأفرد الخبر (غريب) مع أن اسم (إن) اثنان؛ للإشارة إلى أن إحدى الغربتين مخالفة للأخرى، والخبر بالقطع متعلق بضمير المتكلم في (فإنني)؛ لا اقترانه بلام الابتداء وهي من متعلقات (إن)^(١).

وعلى هذا جاء نظم الآية الكريمة شاملاً الجمع والفرق؛ فالجمع بواو العطف، والفرق بإفراد الضمير واختصاصه باسم الجلالة.

ثانياً: أن الضمير جاء مفرداً؛ لأنَّ الله ورسوله في حُكْمٍ مَرَضِيٍّ واحد، فأرضاء الله إرضاء لرسوله^(٢).

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿يَخْلِفُونَكَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ جملتان لا جملة واحدة، حُذف الخبر من الأولى لدلالة خبر الثانية عليه، والتقدير عند سيبويه: والله أحقُّ أن يرضوه، ورسوله أحقُّ أن يرضوه، كما في قول الشاعر:

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا عِنْدَكَ رَاضٍ وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفٌ

أي نحن بما عندنا راضون، وأنت بما عندك راضٍ^(٣).

(١) التحرير والتنوير، المجلد السادس، ج ١٠، ص ٢٤٥.

(٢) الكشف ٢ / ١٩٩، البحر المحيط ٥ / ٦٤.

(٣) البحر المحيط ٥ / ٦٤.

وعلى كل هذه الأوجه لا يكون في الآية مخالفة للقاعدة؛ بل فيها - إلى جانب موافقة القاعدة - لمحة بلاغية، وإيجاز بليغ على نحو ما أوضحنا.

(٤) ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ (الحج: ١٩)؛ حيث أُعيد ضمير الجمع في (اختصموا) على مثني (خصمان) والصواب - في زعمهم - أن يقال: هذان خصمان اختصما.

كلمة (خصمان) مثني، مفردة (خَصْم) وهو اسم جمع معناه (فريق)، أي: هذان فريقان. فجاء اسم الإشارة مثني مراعاةً للفظ، وجاء الضمير جمعاً مراعاةً للمعنى؛ إذ إنَّ كلَّ خَصْم يضم أفراداً، ومثله قول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ (محمد: ١٦) فأفرد ضمير "يستمع" مراعاةً للفظ (مَنْ) المفرد، وجمع ضمير (خرجوا) مراعاةً لمعنى (مَنْ) الدال على الجمع^(١).

ولو قيل: هؤلاء خصمان اختصما، أو: هذان خصمان اختصما لجاز، وقد قرأ ابن عجلة: "هذان خصمان اختصما"^(٢).

والقراءة المتواترة ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا﴾ فيها لمحة بلاغية؛ حيث جاء اسم الإشارة بلفظ المثني إيماً إلى الفرق بينهما، وأنهم لَمَّا وقعت الخصومة والاشتباك صاروا كأن بعضهم يُموج في بعض، فقيل: (اختصموا) تعبيراً عن هذا التداخل والتشابك بين أفراد الفريقين.

(١) الكشف ٣ / ٩ .

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٦٠ .

وما سبق يُقال أيضًا في قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ (الحجرات: ٩).

(٥) ﴿وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ﴾ (التحریم: ٣)؛ حيث جاء الضمير مفردًا في (نبأت) وهو يعود على (بعض أزواجه)، والصواب - في زعمهم - أن يقال: (نبأن به).

ولو أن صاحب هذه الشبهة راجع المعاجم اللغوية لَمَا أجهد نفسه بإيرادها، ولعلم أن كلمة (بعض) يراد بها الجزء من الشيء. وكل طائفة من الشيء بعضه^(١)، ويصدق هذا على القليل والكثير. والمراد بـ (بعض أزواجه): حفصة - رضي الله عنها^(٢)، وهي واحدة، فعاد الضمير إليها مفردًا في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ﴾. إذن فلا مخالفة في الآية، ولا مُسَوِّغ لجمع الضمير، بل الإفراد واجب هنا. ومثل هذا قول لبيد:

أَوْ يَغْتَلِقُ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُهَا

يشير إلى نفسٍ واحدة هي نفسه.

● توهم عدم المطابقة بين التمييز والمميز:

أي جريان التمييز على نسق كلام العرب في العدد والمعدود، وقد ظن المتوهم وجود مخالفة للقاعدة النحوية في قول الله تعالى: ﴿وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾ (الكهف: ٢٥)؛ حيث إن تمييز

(١) انظر: مقاييس اللغة، اللسان "ب ع ض"

(٢) الكشف ٤ / ١٢٦، البحر المحيط ٨ / ٢٩٠

العدد (ثلاثمائة) يجب إفراده، فاللغة تقول: عندي ثلاثمائة كتاب، لا ثلاثمائة كتب، والصواب - في زعمهم - أن يقال: ثلاثمائة سنة.

● وقد جهل صاحب هذه الشبهة أمرين:

الأول: أن كلمة (سنين) في الآية على هذه القراءة بتنوين (ثلاثمائة) ليست تمييزاً، بل هي عطف بيان، والتقدير: فلبثوا في كهفهم سنين ثلاثمائة، فكلمة (سنين) تفسير للعدد، وهي منصوبة بالفعل (لبثوا)، ومنه قول عنترة:

فيها اثنتان وأربعون حلوبةً سوداً كخافية الغراب الأسحم
فجعل (سوداً) مكان (سوداء).

الثاني: أن من العرب من يضع السنين في موضع سنة، وعلى هذا قراءة حمزة، و الكسائي، وطلحة، ويحيى، والأعمش، والحسن، وابن أبي ليلى، وخلف وابن سعدان، وابن عيسى الأصبهاني، وابن جبير الأنطاكي: (ثلاثمائة سنين) بغير تنوين في (ثلاثمائة) وإضافة (سنين) إليها. والمراد في هذه القراءة: ثلاثمائة سنة؛ لأن العرب قد تضع الجمع في موضع المفرد^(١). وعلى كلتا القراءتين فلا خطأ في الآية ولا مخالفة.

● توهم عدم المطابقة بين المبتدأ والخبر:

زعموا أن القرآن الكريم، قد خالف قاعدة المطابقة في العدد بين المبتدأ والخبر، ولهم على ذلك الشواهد التالية:

(١) معاني القرآن للفراء ٢ / ١٣٨، البحر المحيط ٦ / ١١٧

(١) قوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ ضَيْفِي﴾ (الحجر: ٦٨)؛ حيث جاء المبتدأ جمعاً (هؤلاء) والخبر مفرداً (ضيفي)، والصواب - في زعمهم - أن يقال: هؤلاء ضيوفي.

وتقدم مثل هذا في الكلام على قول الله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصَّانِ أَخَصَّمُوا﴾. فكلمة (ضيف) مثل (خَصَّم) تستعمل للواحد وللجمع^(١)، وهي هنا للجمع.

وعلى هذا فليس في الآية إخلال بقاعدة المطابقة العددية بين ركني الجملة.

(٢) قوله تعالى: ﴿هُمْ أَعْدُو﴾ (المنافقون: ٤)؛ حيث جاء المبتدأ جمعاً، والخبر مفرداً، والصواب - في زعمهم - أن يقال: هم الأعداء.

والذي جهله صاحب هذه الشبهة أن كلمة (عَدُو) تستعمل للمفرد والمثنى والجمع^(٢)، ومثله في القرآن كثير، من ذلك قوله تعالى:

• ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ (البقرة: ٣٦، الأعراف: ٢٤، طه: ١٢٣).

• ﴿فَإِنْ كَانِ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ (النساء: ٩٢).

• ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ (الكهف: ٥٠).

• ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: ٧٧).

(١) انظر: تهذيب اللغة، مقاييس اللغة، اللسان (ض ي ف).

(٢) تهذيب اللغة، مقاييس اللغة، اللسان (ع د و).

● توهم عدم المطابقة بين الحال وصاحبها :

زعموا أن القرآن الكريم خالف قاعدة المطابقة في النوع بين الحال وصاحبها، فجاء بحال على صيغة التذكير، مع أن صاحب الحال مؤنث، واستشهدوا لذلك بقول الله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِذْرَارًا﴾ (الأنعام: ٦).

وقد جهل صاحب هذه الشبهة أن صيغة (مِفْعَال) يستوي فيها المذكر والمؤنث؛ فالعرب تقول: ناقة مِمْعَار: إذا كان من عاداتها أن يحمر لبنها من داء، وناقة مخراط: إذا كان من عاداتها أن تُخْرِط، أي يخرج لبنها منعقدًا^(١).

ووصفوا المرأة التي من عاداتها أن لا تتزين بالحلي فقالوا: امرأة معطال، والمرأة التي من عاداتها أن تضع الإناث وصفوها بقولهم: مئاث، والتي من عاداتها أن تضع الذكور وصفوها بقولهم: امرأة مذكار، والتي من عاداتها أن تلد الحمقى بقولهم: امرأة محماق^(٢).

● توهم وجود أخطاء نحوية في القرآن الكريم :

زعموا أن في القرآن أخطاء نحوية، من قبيل رفع ما حقه النصب أو الجر، أو نصب ما حقه الرفع أو الجر... إلخ. وفيما يلي شبهاتهم والآيات التي استشهدوا بها، والرد عليهم:

(١) قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ

(١) المخصص ٤ / ٤٢، المزهر ٢ / ٢١٥، ديوان الأدب ١ / ٣١١.

(٢) المخصص ٤ / ٤٢، المزهر ٢ / ٣١٥، الأماشي لأبي علي القالي ١ / ٢١،

أدب الكاتب ص ٢٥٥، الصاحب ص ١٩٠. ١٩١

لِّلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ (البقرة: ١٢٤)، زعموا أن القرآن قد أخطأ فنصب الفاعل (إبراهيم) ورفع المفعول (ربّه)، وكذا في (الظالمين) وهو - في ظنهم - فاعل (ينال).

أمّا قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾ فالفاعل (ربّه)، والمفعول (إبراهيم)، وقُدِّم المفعول لسببين:

السبب الأول: سبب بلاغي، وهو إفادة الاهتمام بمن وقع به الابتلاء؛ إذ من المعلوم أن الله هو المبتلي، وإبراهيم عليه السلام جد العرب، والقصة مسوقة لدفعهم إلى اتباع سنة أبيهم إبراهيم في امثال أوامر الله، واجتناب نواهيه.

والسبب الثاني: تركيبى؛ ففي مثل هذا التركيب يتحتم تقديم المفعول على الفاعل؛ كي لا يعود الضمير (المتصل بالفاعل) على متأخر في اللفظ والرتبة؛ إذ لو قيل: (ابتلى ربّه إبراهيم) لعاد الضمير (الهاء في ربه) على متأخر لفظاً ورتبة (إبراهيم)، وهذا يقود إلى اضطراب تركيبى والتباس دلالي؛ لأنه يكون حينئذٍ إضماراً قبل الذكر^(١)، أي وجود ضمير لا صاحب له، وعلى المخاطب في هذه الحالة أن يفتش عن صاحب الضمير حتى يعثر عليه فيفهم المعنى! والأمر أيسر من ذلك، فتقديم المفعول على الفاعل كثير مشهور في كلام العرب بحيث لا يحتاج إلى استشهاد.

وأما قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾؛ فالفاعل فيه (عهدي) و(الظالمين) مفعول به، والمعنى: أن العهد لا ينال

(١) الكشف ١ / ٣٠٩، البحر المحيط ١ / ٣٧٥ .

الظالمين، أي لا يصيبهم.

وجعلُ العهد فاعلاً: من باب المجاز العقلي الشائع في اللغة شيوعاً كبيراً، ولا قيام للغة إلّا بوجوده بل إن اللغة تنهار انهياراً كاملاً بغير هذا النوع من المجاز، وإلّا فكيف نعبر عن معانٍ من قبيل: ناله الجهد، حلّ به التعب، أرهقته المشاكل... إلخ؟ حيث جعل كلٌّ من: الجهد والتعب والمشاكل فاعلاً، والإنسان مفعولاً. وكذلك يصحّ في العهد أن (يُنَالَ) أي يُصِيب فيكون فاعلاً كما في الآية، ويصح أن (يُنَالَ) فيكون مفعولاً، كما في قراءة أبي رجاء وقتادة والأعمش (وكلها قراءات شاذة): "لا ينال عهدي الظالمون"^(١)، وكما في قوله تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران: ٩٢).

(٢) قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٍ﴾ (طه: ٦٣). زعموا أنه رفع ما حقه النصب؛ حيث جاء اسم إن (هذان) مرفوعاً؛ لأن الألف علامة الرفع للمثنى.

أولاً: في هذه الآية ست قراءات^(٢)، منها القراءة التي استندوا

(١) البحر المحيط ١ / ٣٧٧.

(٢) الأولى: وهي قراءة المدنيين والكوفيين "إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرَانِ" بتشديد النون، وهذان بالألف، واللام في ساحران.

الثانية: قراءة الزهري وإسماعيل بن قسطنطين والخليل بن أحمد وعاصم في إحدى الروايتين: "إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرَانِ".

الثالثة: قراءة عبد الله بن مسعود "إِنَّ هَٰذَا إِلَّا سَاحِرَانِ".

الرابعة: قراءة عبد الله: "أَنَّ هَٰذَا سَاحِرَانِ".

إليها في تخطئة القرآن الكريم، وهي بتشديد نون (إن)، و(هذان) بالألف، مع إثبات اللام في (لساحران)، وهي قراءة المدنيين والكوفيين، وهي قراءة متواترة.

ثانيًا: للعلماء في توجيه هذه القراءة أقوال عديدة نختار منها:
أنها على لغة من لغات العرب تلزم المثنى الألف في جميع مواقعها الإعرابية، وتعامله معاملة المفرد المقصور، مثل: رِضًا، عَصًا، ومن ذلك قول الشاعر:

فَأُطْرَقَ إِطْرَاقُ الشُّجَاعِ وَلَوْ يَرَى مَسَاغًا لِنَابَاهُ الشُّجَاعُ لَصَمَّمَا

فقال: (لناباه). وهي لغة فصيحة مشهورة لكثير من العرب مثل: كنانة، وبني الحارث وخثعم، وزبيد، وبني العنبر، وبني الهجيم، ومراد، وعذرة^(١).

فهل كل هؤلاء العرب يخطئون في استعمال لغتهم؟ ومن أين يؤخذ الصواب إذن؟ أو ليس النحو العربي استقراء لما جرى عليه كلام العرب، ووصفًا لطرائقهم في التركيب وغيره من مستويات اللغة؟!

(٣) قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ (البقرة: ١٧٧)؛ حيث جاء المعطوف منصوبًا (الصابرين)، والمعطوف عليه مرفوع (المؤوفون).

= الخامسة: قراءة أبيّ: "إن هذان إلا ساحران".

السادسة: قراءة الأعمش، والجحدري، والحسن، والنخعي، وابن جبر: "إن هذين لساحران".

(١) انظر: الكشف ٢ / ٥٤٣، البحر المحيط ٦ / ٢٥٥

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (النساء: ١٦٢)؛ حيث إن المعطوف الوحيد المنصوب في الآية هو (المقيمين)، وما سبقه وما تلاه مرفوع: (الراسخون - المؤمنون - المؤتون - المؤمنون).

وإدعاء وجود خطأ نحوي في الآيتين ليس إلا جهلاً بأساليب اللغة العربية، وأسرار البلاغة فيها، وهو قصور في النظر لا يرى صاحبه سوى المستوى السطحي الظاهر للتركيب، أما على المستوى الأعمق فالكلمتان في الآية منصوبتان على الاختصاص والمدح، والتقدير: وأخص الصابرين، وأخص المقيمين، أو على تقدير: أمدح الصابرين، والمقيمين.

ولهذا الأسلوب غرض بلاغي هو التنبيه على فضل الصبر في الشدائد ومواطن القتال على سائر الأعمال؛ فالصبر مبدأ الفضائل وجامعها؛ إذ لا فضيلة إلا وللصبر فيها أثر بليغ؛ وكذا في (المقيمين) لبيان فضيلة الصلاة على سائر الأعمال المذكورة في الآية، ولذا غُيِّرَ إعرابها بالنصب على المدح والاختصاص؛ ليكون ذلك أدعى إلى لفت الأنظار والأسماع، فالكلام عند اختلافه يصير كأنه أنواع متباينة، وعند الاتحاد في الإعراب يكون وجهًا واحدًا^(١).

وباب النصب على المدح والاختصاص باب واسع في العربية حتى لقد عقد له سبويه بابًا في كتابه أورد فيه كثيرًا من الشواهد

(١) الكشف ١ / ٣٣١، ١ / ٥٨٢، البحر المحيط ٢ / ٧ - ٨، ٣ / ٣٩٥ - ٣٩٦.

والأمثلة من كلام العرب الفصيح^(١).

(٤) قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِثُونَ وَالنَّصَرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (المائدة: ٦٩)؛ حيث رفع المعطوف على منصوب (الصابثون)، على حين جاءت الكلمة نفسها منصوبة في مثل هذا السياق في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَرَىٰ وَالصَّابِثِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٦٢)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِثِينَ وَالنَّصَرَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ (الحج: ١٧).

وجمهور المفسرين قدّروا قوله تعالى: "والصابثون" مبتدأ وجعلوه مقدّمًا من تأخير، وقدّروا له خبرًا محذوفًا لدلالة خبر (إِنَّ) عليه، وأنَّ أصل النظم: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ إلخ، والصابثون كذلك، جعلوه كقول ضابئ بن الحارث:

فإني وقَّيَّارٌ بها لغريبٌ

وبعض المفسرين قدّروا تقادير أخرى أنهاها الألوسي إلى خمسة.

والذي سلكناه أوضح وأجرى على أسلوب النظم، وأليق بمعنى هذه الآية.

(١) الكتاب، سبويه ٢٣٣/٢ - ٢٣٥.

وبعد فممّا يجب أن يُوقن به أن هذا اللفظ كذلك نزل، وكذلك نطق به النبي ﷺ، وكذلك تلقاه المسلمون منه وقرأوه، وكُتِبَ في المصاحف، وهم عرب خُلص، فكان لنا أصلاً، نتعرف منه أسلوباً من أساليب استعمال العرب في العطف، وإن كان استعمالاً غير شائع، لكنه من الفصاحة والإيجاز بمكان، وذلك أن من الشائع في الكلام أنه إذا أُتِيَ بكلام مؤكد بحرف (إنّ) وأُتِيَ باسم إنّ وخبرها وأريد أن يعطفوا على اسمها معطوفاً هو غريب في ذلك الحكم - جيء بالمعطوف الغريب مرفوعاً؛ ليدلّوا بذلك على أنهم أرادوا عطف الجمل لا عطف المفردات، فيقدّر السامع خبراً بحسب سياق الكلام. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ (التوبة: ٣)، أي ورسوله كذلك، فإن براءته منهم - في حال كونه من ذي نسبهم وصهرهم - أمر كالغريب؛ ليظهر منه أن آصرة الدين أعظم من جميع تلك الأواصر، وكذلك هذا المعطوف هنا، لَمَّا كان الصابئون أبعد عن الهدى من اليهود والنصارى في حال الجاهلية قبل مجيء الإسلام؛ لأنهم التزموا عبادة الكواكب، وكانوا مع ذلك تحقق لهم النجاة إن آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحاً، وكان الإتيان بلفظهم مرفوعاً تنبيهاً على ذلك. لكن كان الجري على الغالب يقتضي أن لا يُؤتى بهذا المعطوف مرفوعاً إلا بعد أن تستوفي (إنّ) خبرها، إنّما كان الغالب في كلام العرب أن يؤتى بالاسم المقصود به هذا الحكم مؤخراً، أمّا تقديمه - كما في هذه الآية - فقد يترأى للنّاظر أنه ينافي المقصد الذي لأجله خُولِفَ حكم إعرابه، ولكن هذا أيضاً استعمال عزيز، وهو أن يجمع بين مقتضى حالين، وهما:

الدلالة على غرابة المُخبر عنه في هذا الحكم، والتنبيه على تعجيل الإعلام بهذا الخبر، فإن الصابئين يكادون ييأسون من هذا الحكم أو ييأس منهم من يسمع الحكم على المسلمين واليهود. فنبّه الكلّ على أنّ عفو الله عظيم، لا يضيق عن شمولهم، فهذا موجب التقديم مع الرفع، ولو لم يُقَدِّم ما حصل ذلك الاعتبار، كما أنه لو لم يُرَفَّع لصار معطوفاً على اسم (إنّ) فلم يكن عطفه عطف جملة.

وقد جاء ذكر الصابئين في سورة الحج مقدماً على النصارى ومنصوباً، فحصل هناك مقتضى حال واحدة وهو المبادرة بتعجيل الإعلام بشمول فصل القضاء بينهم وأنهم أمام عدل الله يساوون غيرهم^(١).

٥) قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُم مِّنْ بِأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ (الأنبياء: ٨٠). ظن مثير هذه الشبهة أن كلمة (شاكرون) حال، ومن حق الحال أن يُنْصَب، وعلى ذلك الوهم ففي الآية خطأ نحوي؛ حيث جاءت كلمة (شاكرون) مرفوعة بالواو، والصواب - عندهم - أن يقال: فهل أنتم شاكرين!! وهذه شبهة لا تستحق الرد عليها؛ لأن صاحب الشبهة لا يعرف أبجديات النحو العربي، وليس في الجملة حال، وإعرابها كالتالي:

- هل : حرف استفهام لا محل له من الإعراب.

- أنتم: ضمير مبني على السكون في محل رفع مبتدأ.

- شاكرون: خبر المبتدأ مرفوع بالواو.

ولا وجه مطلقاً لما ادّعاه صاحب هذه الشبهة.

(١) التحرير والتنوير، مجلد ٤، ص ٢٧٠ - ٢٧١

(٦) قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ (هود: ١٠)؛ حيث جاءت كلمة (ضراء) منصوبة بالفتحة! والصواب - في زعمهم - أنها مجرورة بالإضافة، فكان ينبغي أن يقال: بَعْدَ ضَرَاءٍ!!

وقد التبس الأمر على صاحب الشبهة فظنَّ أن كلمة (ضراء) منصوبة؛ لأنه لا يعرف من علامات الجر سوى الكسرة.

ونقول له: لو أنك راجعت أيَّ كتاب في النحو لعلمت أن كلمة (ضراء) ممنوعة من الصرف؛ لانتهائها بألف التأنيث الممدودة؛ ولذا تُجرُّ بالفتحة نيابة عن الكسرة، وإعرابها في الآية: مضاف إليه مجرور (بالفتحة).

(٧) قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِثَانِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ۝١٥ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَرُهَا نَقْدِيرًا ۝١٦ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا ۝١٨﴾ (الإنسان: ١٥ - ١٨)؛ حيث جاءت كلمة (قواريرًا) وكلمة (سلسيلاً) مصروفتين، وهما ممنوعتان من الصرف، وكذا كلمة (سلاسلاً) في قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَلَآ وَسَعِيرًا ۝٤﴾ (الإنسان: ٤). وهذا - في زعمهم - خطأ؛ لأنه صرف ما حقه المنع من الصرف.

أولاً: التنوين في هذه الكلمات (قواريرًا - سلسيلاً - سلاسلاً) ليس تنوين صرف؛ وإنما هو بدل من ألف الإطلاق في ختام الآيات، وفي (قواريرًا) الثانية على الإتيان، أي التناسب الصوتي بين كلمة الفاصلة والتالية لها، وفي كلمة (سلاسلاً) - على قراءة من

قرأ بتنوينها - إجراء للوصل مجرى الوقف^(١).

والغرض من ألف الإطلاق مراعاة الجرس الموسيقي في فواصل الآيات، وهذه خاصة من خصائص النظم القرآني^(٢).

ثانيًا : حتى لو افترضنا أن تنوين هذه الكلمات هو تنوين صرف، فليس هذا خطأً، بل إن من العرب من يصرف كل ممنوع من الصرف ما عدا (أفعل من)^(٣).

وعلى ذلك يجوز صرف كلمات (قوارير - سلاسل - سلسيل)، وهذا منقول عن العرب أصحاب هذه اللغة.

وسواء أكان تنوين هذه الكلمات - كما رأينا - تنوين صرف، أو تنوين إطلاق، فلا خطأ في الاستعمال القرآني.

٨ قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِكُمْ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (المنافقون: ١٠)؛ حيث جاء الفعل (أَكُنْ) مجزومًا، والصواب أن يكون منصوبًا؛ لأنه معطوف على فعل منصوب (فَأَصَّدَّقَ).

جُزِمَ الفعل (أَكُنْ) في الآية الكريمة عطفاً على المَحَلِّ؛ وتقدير الكلام: إِنْ أَخَّرْتَنِي أَصْدَقُ وَأَكُنْ^(٤). والعطف على المحل شائع معروف في كلام العرب، قال الشاعر:

(١) الكشف ٤ / ١٩٥ - ١٩٨

(٢) البحر المحيط ٨ / ٣٩٧ .

(٣) شرح الرضى على كافية ابن الحاجب ١ / ٣٨ .

(٤) الكشف ٤ / ١١٢، البحر المحيط ٨ / ٢٧٥

فَأَبْلُونِي بِلِيَّتِكُمْ لَعَلِّي أَصَالِحُكُمْ وَأُسْتَدْرِجُ نَوِيًّا^(١)
 فجاء بأحد الفعلين المعطوفين مرفوعًا (أصالح)، وبالأخر
 مجزومًا (وأستدرج).

والجمع بين الفعلين (فأصدق - وأكن) بالعطف - مع نصب
 أحدهما بفاء السببية وجزم الآخر بالعطف على محل جواب الشرط -
 هذا الجمع من بدائع الاستعمال القرآني ؛ لما فيه من إيجاز بليغ مع
 تمام المعنى في أقل لفظ ممكن ، وذلك أن تقدير الكلام : لولا آخرتني
 إلى أجل قريب فأصدق وأكون من الصالحين (أي فيكون هذا التأخير
 سببًا في تصدقي وصلاحه)، ثم عاد السائل فكرر سؤاله بصورة
 الشرط : إن تؤخرني إلى أجل قريب أصدق وأكن من الصالحين .

فاجتماع وظيفتين نحويتين في الفعلين المعطوفين ، أدّى إلى الدلالة
 على معنيين دلاليين هما السببية والشرط ، في لفظ موجز معجز^(٢) .

٩) قوله تعالى : ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ (الأنبياء : ٣) . زعموا
 أن الآية جاءت بفاعلين (واو الجماعة، الذين) لفعل واحد (أسر).
 والصواب - في زعمهم - أن يقال : وأسّر النجوى الذين ظلموا .
 وقد ذكر ابن هشام في هذه الآية أحد عشر وجهًا^(٣) ، نذكر منها :
 • أن الواو علامة جمع فقط ، وليست فاعلاً ، فهي مثل تاء
 التأنيث في (قالت)، وهذه لغة طيئ، وعليه قول الشاعر :

(١) مغني اللبيب، ص ٦٢٠ . ٦٢١ .

(٢) التحرير والتنوير، مجلد ١٣ ، ج ٢٨ ، ص ٢٥٤ .

(٣) مغني اللبيب، ص ٤٨٠ . ٤٨١ .

يَلُومُونَنِي فِي اشْتِرَاءِ النَّخِي لِي أَهْلِي فَكُلُّهُمْ أَلْوَمٌ
وقول الشاعر:

تَوَلَّى قِتَالَ الْمَارِقِينَ بِنَفْسِهِ وَقَدْ أَسْلَمَاهُ مُبَعَّدٌ وَحَمِيمٌ
ومنه في الحديث الشريف قوله ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار»^(١).

• أن الواو هي الفاعل، و(الذين) بدل منها.
• أن الواو فاعل، و(الذين) خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هم الذين.

• أن الواو فاعل، و(الذين) بدل من واو (استمعوه) في الآية السابقة.

• أن الواو فاعل، و(الذين) منصوب على الاختصاص والذم بفعل محذوف والتقدير: أذمُّ أو أعني الذين ظلموا.

• أن الواو فاعل، و(الذين) مجرور على أنه بدل من الناس في قوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ (الأنبياء: ١).

ولعل أرجح هذه التخريجات وغيرها: الأول والثاني، وهو ما يشعر به صنيع كثير من المفسرين؛ حيث بدأوا بهما، كالزمخشري^(٢)، وأبي حيان^(٣)، وقالوا تعليقاً على كون الواو فاعلاً، و(الذين) بدلاً منها:

(١) البخاري (فتح الباري: ٦٨٧٨، ٦٩٣٢)، ومسلم (شرح النووي: ٥٤، ٨٢٢، ١٠٠١، ١٤٦٦).

(٢) الكشف ٢ / ٥٦٢.

(٣) البحر المحيط ٦ / ٢٩٧.

أبدل (الذين ظلموا) من واو (أسروا)؛ إشعارًا بأنهم الموسومون بالظلم الفاحش فيما أسروا به.

يُضاف إلى ما تقدّم أن مجيء الآية على هذه الصورة من التركيب فيه فائدة بلاغية؛ حيث جاءت على نسق الاستئناف البلاغي، وهو أن تتقدم جملة من الكلام تثير في ذهن السامع تساؤلًا يَدُبُّ في نفسه؛ فتأتي جملة أخرى تجيب عن هذا التساؤل الذي ليس له صورة لفظية في الكلام، وإنما هو مُقَدَّرٌ وروده في ذهن السامع أو القارئ، فكان جملة ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ قد أثارت في ذهن المخاطب سؤالًا هو: من الذين أسروا النجوى؟ فكان الجواب: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وفي هذا الأسلوب إشارة إلى تقبيح نجواهم ووسم فعلهم هذا بأنه ظلم^(١).

● ادّعاء وجود اضطراب في بعض التراكيب القرآنية:

من ذلك ما زعموه من وجود لبس في:

● استخدام الضمائر:

زعموا أن هناك اضطرابًا في استعمال القرآن للضمير، في الآيات التالية:

(١) قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِ وَرَسُولِي قَالُوا ءَامِنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (المائدة: ١١١)؛ حيث جاء الضمير المستتر في الفعل (اشهد) للمفرد المخاطب، والصواب - في زعمهم - أن يقال: قالوا آمنا ونشهد بأننا مسلمون!! وذلك - في دعواهم - لأن الفعل (اشهد) عائد على المتكلم الجمع (الحواريين).

(١) الكشف ٥٦٢/٢ .

وهذه الشبهة تدل على جهل فاحش من صاحبها بأبسط قواعد اللغة، من جهة التركيب، ومن جهة المعنى:

• من جهة التركيب: الفعل (اشهد) خطاب من الحواريين لله الواحد الأحد، أي: آمناً، واشهد يا رب، لنا بهذا الإيمان.

• ومن جهة المعنى: لو أنهم قالوا كما اقترح صاحب الشبهة: آمناً ونشهد بأننا مسلمون، لكان في هذا الكلام تكرارٌ ولغو لا فائدة منه؛ لأن قولهم (آمناً) يعادل قولهم (شهدنا بأننا مسلمون) وما الفارق بين إقرار المرء بإيمانه، وأن يشهد لنفسه بهذا الإيمان؟!!

أما نظم الآية الكريمة فتضمن شيئين:

- إقرارهم بالإيمان: (قالوا آمناً).
- دعاؤهم الله ﷻ أن يشهد لهم بهذا الإيمان: (واشهد بأننا مسلمون).

ولعل صاحب هذه الشبهة قد اشتبه عليه الفعل (واشهد) فظنّه فعلاً مضارعاً، ومنشأ هذا الوهم جهله بالفارق بين همزة المضارع، وهمزة فعل الطلب، فهمزة المضارع همزة قطع (وأشْهَدُ) وهمزة فعل الطلب همزة وصل (واشْهَدُ) وهو ما جاء في الآية.

فكيف يتصدى من جهل هذا الفرق اليسير لنقد القرآن الكريم، ويدّعي وجود اضطراب في بنائه التركيبي؟!!

(٢) قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٨) لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ (الفتح: ٨ - ٩).

زعموا أن في الآيتين اضطراباً في استخدام الضمائر من وجهين:

الأول : أن هناك انتقالًا من مخاطبة الرسول ﷺ (أرسلناك . . .) إلى مخاطبة المؤمنين (لتؤمنوا).

الثاني : أن ضمير الغائب في (تُعزّروه، تُوقّروه) يعود على الرسول المذكور آخرًا، وفي (تسبحوه) عائد على الله المذكور أولاً.

ويؤيدون شبهتهم بقولهم: فلو كان الضمير في الأفعال الثلاثة (تعزّروه - وتوقّروه - وتسبحوه) عائداً على النبي ﷺ فهذا كفر؛ لأن التسبيح لا يكون لغير الله سبحانه.

وإن كان الضمير في الأفعال الثلاثة عائداً على الله ﷻ فهذا أيضاً كفر؛ لأن الله ﷻ لا يحتاج إلى من يعزّره ويقويه.

وليس في الآيتين اضطراب، بل هو فنٌ بلاغي يسمى الالتفات، وهو الانتقال من حالة خطاب إلى حالة أخرى، كالانتقال من الغائب إلى المتكلم، أو من خطاب المفرد إلى خطاب الجمع. وهو أسلوب عربي معروف، ومنه قول النابغة:

أَلَا زَعَمْتَ بَنُو عَبْسٍ بِأَنِّي أَلَا كَذَبُوا كَبِيرُ السِّنِّ فَإِنْ

وهو الالتفات من معنى إلى معنى آخر، ومنه قول شاعر الحماسة:

فإِنَّكَ لَمْ تَبْعُدْ عَلَى مَتْعِدٍ بَلَى كُلُّ مَنْ تَحْتَ التَّرَابِ بَعِيدٌ^(١)

وإذن فالتحول من خطاب النبي ﷺ إلى خطاب المؤمنين ليس اضطراباً؛ لأن النبي ﷺ خُوطب بالرسالة والشهادة، والبشارة

(١) أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، د. حسن طبل، دار الفكر العربي،

القاهرة ١٩٩٨م، ص ٢١٠ - ٢١١.

والنذارة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(١) وخطوب المؤمنين بالغاية من تلك الرسالة في قوله: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وهو التفات جلي في التركيب والمعنى.

أما عن ضمائر الغائب في الأفعال الثلاثة: (وتعزروه - وتوقروه - وتسبحوه) فليس فيها اضطراب؛ لأنها جميعاً عائدة إلى اسم الجلالة ومعنى (تعزروه): تعزروا دينه، أي تقوّوه وتنصروه. ولا شبهة للكفر في نصر دين الله ﷻ وتقويته، قال تعالى: ﴿إِنْ نَصْرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ (محمد: ٧). ومعنى (توقروه): تُعْظُمُوهُ.

وهذا هو الوجه الراجح في مرجع الضمائر، واقتصر عليه الزمخشري^(١)، ورجّحه أبو حيّان^(٢)، وأيده الطاهر بن عاشور بقوله: ضمائر الغيبة المنصوبة الثلاثة عائدة إلى اسم الجلالة؛ لأن أفراد الضمائر مع كون المذكور قبلها اسمين - دليل على أن المراد أحدهما، والقرينة على تعيين المراد (أنه الله سبحانه) ذكر (وتسبحوه)؛ ولأن عطف "ورسوله" على لفظ الجلالة اعتداد بأن الإيمان بالرسول ﷺ إيمان بالله، فالمقصود هو الإيمان بالله^(٣).

٣) قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَحْرٍ مَبْجُوجٍ طَبَقَ لَكُمْ مِنْهُ مَوْجٌ سَوَاجٌ فَلْيَمْسِكُوا بِهُلَالِكُمْ وَلَقِيبَتِكُمْ الْيَمُّ الْكَوْبُ﴾ (يونس: ٢٢)؛ حيث انتقل الكلام من ضمير المخاطب (كنتم) إلى ضمير الغائب (بهم - فرحوا) والصواب - في ظنهم - أن يقال: حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بكم بريح

(١) الكشف ١ / ٥٤٢ .

(٢) البحر المحيط ٧ / ٩١

(٣) التحرير والتنوير، مجلد ١٢، ج ٢٦، ص ١٥٦

طيبة ، وفرحتهم بها.. وبذلك يستمر الكلام على نسق واحد، وتتوحد الضمائر.

جاءت الآية الكريمة على نسق أسلوب بلاغي يُعرف بالالتفات، وهو ما أشرنا إليه في الآية السابقة.

وها هنا بدأت الآية بتوجيه الخطاب للناس كافة (مؤمنين وغير مؤمنين)، امتناناً بنعمة التسيير في البحر، وهي شاملة لجميع الناس، فَحَسُنَ خطابهم بذلك، ثم التفت من الخطاب إلى الغيبة؛ لأن هذه الحالة (حالة جرى السفن) هي حالة غياب، فالسفن حملت راكبيها، وغابت بهم في خضم الأمواج، واستمر الكلام بضمير الغائبين في قوله تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾؛ لأنه يخص الباغيين الذين لم يشكروا نعمة الله، فأخرج الله ﷻ المؤمنين من الخطاب وأفرده للكافرين لئلا يشترك المؤمنون مع الكافرين في هذا العقاب والهلاك في البحر^(١).

هكذا جاء الالتفات في الآية من ضمير المخاطبين إلى ضمير الغائبين متوافقاً مع المعنى، فلما كان السياق خاصاً بالنعمة جاء ضمير المخاطب الجمع لجميع السامعين، فلما تهيأت للانتقال إلى ذكر الضراء حدث الانتقال من ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة بما يخلص وقوع الضراء بالمشركون.. ثم استمر ضمير الغيبة في الآية التالية خاصاً بالمشركون وحدهم: ﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (يونس: ٢٣)؛ فتمخض الضمير للمشركون^(٢).

(١) البحر المحيط ٥ / ١٣٨ . ١٣٩

(٢) التحرير والتنوير، مجلد ٦، ج ١١، ص ١٣٥

ليس في الضمائر اضطراب إذن، بل إن تركيب الآية على هذه الصورة جاء متسقاً تمام الاتساق، فجاء كل ضمير مطابقاً لحال صاحبه، هذا إلى ما في الانتقال من الخطاب إلى الغياب من تفريق بين حالين: حال المؤمنين الذين شكروا نعمة الله، وحال المشركين الذين امتحنوا بخطر الهلاك في البحر فارتفعت أصواتهم بدعاء الله **وَعَلَّكُمُ** ثم لَمَّا أنجاهم استمروا في بغيتهم وطغيانهم. وكانت الضمائر على النحو التالي:

كنتم : خطاب عام يشمل جميع السامعين من مؤمن وكافر، ثم أخرج المؤمنين وأفرد الضمير لغير المؤمنين، بهم، أنجاهم، هم، يبعثون، فرحوا.

ثم عاد الخطاب إلى جميع الناس، فقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بُغِيتُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (يونس: ٢٣).

● زمن الفعل:

في القرآن الكريم تنوع أسلوبياً في أزمنة الأفعال، فنجد الماضي مُعَبَّرًا عنه بلفظ دالٍّ على الحاضر، أو المستقبل، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٥٩)؛ حيث عَبَّرَ بالمضارع (يكون) بدلاً من الماضي (كان)، وقد زعموا أن هذا خطأ.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ (الصافات: ١٠٢)؛ حيث عَبَّرَ باللفظ الدالٌّ على الحاضر (أَرَى)، وهو حكاية حالة

ماضية، والصواب - في زعمهم - أن يقال: إني رأيت .
 والتعبير عن الماضي بلفظ الحاضر شائع معروف في كلام
 العرب، قال رؤبة:

لَقَدْ أَتَى فِي رَمَضانَ المَاضِي جَارِيَةً فِي دِرْعِهَا الفَضْفَاضِ
 تُقَطِّعُ الحَدِيثَ بِالإِيمَانِ أَبْيَضُ مِنْ أُخْتِ بَنِي إِبَاضِ
 وقال امرؤ القيس:

مَطَوْتُ بِهِمْ حَتَّى تَكِلَ مَطِيَّهُمْ وَحَتَّى الْجِيَادُ مَا يُقَدِّنَ بِأَرْسَانِ
 وليس العدول عن لفظ إلى غيره عبثًا، بل له أسرارٌ بلاغية، وهي
 - فيما يخص الشواهد التي أمامنا - استحضر الحال الماضية في
 الذهن، حتى كأنها مشاهدة وقت الإخبار^(١).

فقوله **﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾** حكاية حال ماضية، فالأمر (كن)
 عبارة عن إيجاد الصورة التي صار بها الإنسان إنسانًا^(٢)، وصيغة
 المضارع (فيكون) جاءت بدلًا من الماضي لغرض التعبير عن تجدد
 الخلق واستمراره في ذرية آدم، وإثارة ذهن المشاهد لاستحضار هذه
 الصورة كأنها ماثلة أمامه في اللحظة الحاضرة.

ونزيدهم شواهد من كتاب الله على التعبير عن الماضي بلفظ
 الحاضر:

• **﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ**

(١) مغنى اللبيب، ص ٩٠٥ .

(٢) البحر المحيط ٢ / ٤٧٨ .

الرَّيْحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿ (الحج: ٣١) . فعَبَّرَ بالمضارع (يشرك) للدلالة على التجدد والاستمرار؛ فالوصف التالي حال متجددة لكل من يشرك بالله، ثم عَبَّرَ بالماضي (خَرَّ)؛ لدلالة الماضي على الثبوت والوقوع، فهو أمر لا فِكَاكَ منه، ثم جاء الفعلان التاليان بلفظ الحاضر (تَخَطَّفُهُ - تَهْوِي) لاستثارة الذهن كي يستحضر هذه الحال، وكأنَّها ماثلة متجددة أمامه أبدًا.

• ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا فُسَقْنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ (فاطر: ٩)؛ حيث جاءت ثلاثة أفعال بصيغة الماضي (أرسل - فسقناه - فأحيينا)، بينما جاء فعل واحد بصيغة المضارع (فتثير)؛ وقصد بلفظ الحاضر هنا استحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة في إثارة السحاب: يبدو أولاً قطعاً، ثم تتضامُّ القطع متقلِّبة بين أطوارٍ حتى تصير ركائماً^(١).

وهكذا تفعل العرب بكل فعل فيه نوعٌ من التميُّز والخصوصية أو الأهمية، كما في قول تَابَّطَ شَرًّا:

بَأْنِي قَدْ لَقِيتُ الْغُولَ تَهْوِي بِسَهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانِ
فَأَضْرِبُهَا بِلَا دَهْشٍ فَخَرَّتْ صَرِيْعًا لِلْيَدَيْنِ وَلِلْجِرَانِ

ميز الفعل (فأضربها) بصيغة الحاضر؛ لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التي تشجع فيها - بزعمه - على ضرب الغول، كأنَّه يُبَصِّرُهُمْ إيَّاهَا وَيُظْلِعُهُمْ عليها كأنها مُشَاهِدَةٌ الْآنَ، تعجبياً من جرأته وثباته وشجاعته^(٢).

(١) مغني اللبيب، ص ٢٠٥ - ٢٠٦

(٢) الكشف ٣ / ٣٠١ - ٣٠٢ .

وأما سائر الأفعال فجاءت بصيغة الماضي ؛ لأن المقصود منها إثبات وقوع هذه الأفعال وتحققها، أما الحالة التي قصد استحضارها في الأذهان فهي حالة تشكل السحاب، وتجمعه حتى يصير مطراً، وقد عبّر عن هذه بلفظ الحاضر.

ومما قد يظنه الجاهلون اضطراباً في استخدام الأفعال: تعبير القرآن عن الحاضر بلفظ الماضي، نحو قوله ﷻ:

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢٧).

وقوله ﷻ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٤٠).

وفي كثير من الآيات التي فيها وصف الله ﷻ بلفظ (كان)، والمراد التعبير عن أزلية هذا الوصف^(١).

وغير ذلك الكثير في كتاب الله تعالى، وفي كلام العرب من التعبير عن الحاضر بلفظ الماضي، والتعبير عن الماضي بلفظ الحاضر. ولكل استعمال سياقه الذي يخلع عليه دلالة بعينها تناسب المقام.

● حروف الجر:

زعم بعضهم أن ثمة اضطراباً وتعارضاً في استخدام القرآن لحروف الجر^(٢)، واستدلوا لذلك بقول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ (الأنعام: ١٦٤). فعلق فعل الكسب بحرف الاستعلاء (على). بينما في موضع آخر علق الكسب مرة باللام وأخرى بعلی،

(١) مفردات الأصفهاني (كان).

(٢) راجع بتفصيل: القرآن وتفاعل المعاني / محمد محمد داود . - القاهرة : دار غريب، ٢٠٠٢ م .

وهو قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة: ٢٨٦) وهذا - في ظنهم - تناقض.

في آية البقرة اقترن كسب الخير بحرف الملك (اللام)، واكتساب الشر بحرف الاستعلاء (على) ؛ لأن الشر أوزار وأثقال يحملها صاحبه فهي (عليه) وهو تحتها يعاني وطأتها، بينما الخير مما تفرح به النفوس وتُسّر، فهو (لها) بمنزلة الملك^(١).

وأما آية الأنعام فاقترن فعل الكسب فيها بحرف الاستعلاء (على) فقط ؛ لأن سياق هذه الآية خاصٌ بعاقبة الكسب، والمعنى: لا تكسب نفس شيئاً يكون عاقبته على أحد غيرها. وجاءت الآية جواباً عن قولهم للمؤمنين: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ﴾ (العنكبوت: ١٢) ؛ ولذا كان الجواب بيان عاقبة الخطايا، وأن كل نفس (عليها) ما كسبت من آثام^(٢).

فليس لما ادَّعَوْهُ أساس يقوم عليه، اللهم إلا جهلهم بأهمية السياق، وأنه لا يجوز عزل أي عنصر لغوي عن سياقه، أو لعله تجاهل منهم لدور السياق في الدلالة، بهدف إثارة الشبهات، والتعمية على المقاصد الحقيقية.

● حروف العطف:

زعموا أن القرآن الكريم قد استخدم حروف العطف في غير موضعها، واستدلوا لزعمهم بقول الله ﷻ: ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنْ

(١) البحر المحيط ٢ / ٣٦٧ .

(٢) الكشف ٢ / ٦٤ - ٦٥، البحر المحيط ٤ / ٢٦٣ .

النِّسَاءَ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبُعًا ﴿٣﴾ (النساء: ٣) . حيث إن الواو تدل على الجمع ، وبذلك فإن الآية تدل على إباحة الزواج بتسع نساء (مثنى + ثلاث + رباع) = تسع نساء!!

والأمر ليس كما زعموا؛ لأن الأعداد التي تُجْمَعُ قسمان:

القسم الأول: قِسْمٌ يُؤْتَى بِهِ لِيُضَمَّ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ ، وهو الأعداد الأصول ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ (البقرة: ١٩٦) ، وقوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِّقَلْتُ رَبِّيَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ (الأعراف: ١٤٢) ، فهذا هنا جاءت الواو للجمع بين الأعداد.

والقسم الثاني: يراد به الانفراد لا أن ينضم بعضه إلى بعض ، وهو الأعداد المعدولة ، كما في الآية التي استدلووا بها ، وكما في قوله ﷻ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَٰئِكَ أَجْنَحٌ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبُعًا﴾ (فاطر: ١) أي: منهم جماعة ذوو جناحين ، وجماعة ذوو ثلاثة أجنحة ، وجماعة ذوو أربعة أجنحة ، فكل جنس مفردٌ بعدده .

ومن ذلك قول الشاعر:

ولكنما أهلي بوادٍ أنيسه ذئابٌ تبغي الناس مثنى وموحدٌ

وهو لا يريد ضم المثنى إلى الموحد ، بل وصف مهاجمة الذئاب للناس بحالتين: حالة انفراد كل واحدٍ منها ، وحالة اجتماع كل واحد مع آخر^(١) .

(١) مغني اللبيب ، ص ٨٥٧ - ٨٥٨ .

وإذن فالمراد من الآية إباحة التعدد على أيّ واحدة من الصور المذكورة: مثني، ثلاث، رباع.

ولا يجوز هنا التعبير بـ(أو) بدلاً من الواو؛ لأنه بدخول (أو) يصبح المعنى أنهم جميعاً لا ينكحون إلا على واحدة من الصور المذكورة، فإمّا أن يتزوج كل رجل اثنتين، وإمّا أن يتزوج كل رجل ثلاثاً، وإمّا أن يتزوج كل رجل أربعاً. وليس هذا هو المراد، بل المراد إباحة أيّ صورة من صور التعدد لكل من شاء أن يكون له أكثر من زوجة^(١).

وقد أجمع الفقهاء على عدم إباحة أكثر من أربع؛ لأنهم فهموا المراد من الآية، وعلموا أن الأسلوب العربي لا يجيز الجمع في الأعداد المعدولة، بل حين تأتي هذه الأعداد معطوفة بالواو، فالمراد أفراد كل عدد منها، على نحو ما بينا في الآيات السابقة.

● أسماء الإشارة:

زعموا أن هناك اضطراراً وتعارضاً في الاستخدام القرآني لأسماء الإشارة، واستدلوا لدعواهم بقول الله ﷻ: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (البقرة: ٢) وقوله ﷻ: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ (الأنعام: ٩٢). حيث أشار ﷻ إلى القرآن في الآية الأولى بأداة الإشارة للبعيد (ذلك)، وفي الآية الثانية بأداة الإشارة للقريب (هذا).

وإننا نلتمس العذر لصاحب هذه الدعوى؛ لأنه قد خفي عليه تنوع أساليب التعبير في العربية؛ بل وفي اللغات عامة، ولهذا التنوع

(١) انظر: الفقه على المذاهب الأربعة، عبدالرحمن الجزيري ١٢٠/٤

مقتضياته؛ فلكل عبارة سياقها الذي يقتضي وجهًا بعينه من وجوه التركيب، ينسحب هذا على أدوات الإشارة وغيرها.

فقد يُشار إلى القريب بالأداة الموضوعة للإشارة إلى البعيد؛ إذا أريد تعظيم المشار إليه وبيان علوّ منزلته، كما أن تبادل البعيد مع القريب وارد في العربية.

وفي الإشارة إلى القرآن العظيم باسم الإشارة (ذلك) في الآية الأولى ملمحان بلاغيان:

الأول: تعظيم القرآن، وهذا على حدّ قول الشاعر:

أَقُولُ لَهُ وَالرُّمْحُ يَأْطِرُ مَتْنَهُ تَأَمَّلْ خُفَافًا إِنَّنِي أَنَا ذَلِكَا^(١)

والثاني: زيادة التنبيه، وهذا الغرض البلاغي لا يتحقق إلا بالمخالفة، أي أن يؤتى بأداة الإشارة للبعيد في حين أن المشار إليه حاضر ماثل، كما في البيت المذكور.

وقد صرح النحاة بجواز استعمال (هذا)، (ذلك) في مثل هذا السياق، ومن ذلك قول ابن مالك:

"وقد ينوب ذو البعد عن ذي القرب لعظمة المشير أو المشار إليه، وذو القرب عن ذي البعد لحكاية الحال، وقد يتعاقبان مشارًا بهما إلى ما وَلِيَاهُ من الكلام"^(٢).

والقرآن الحكيم استعمل أداة البعد في آية البقرة لما سبق بيانه.

(١) التحرير والتنوير ١/ ٢٢٠-٢٢١، والبيت لخفاف بن ندبة، أحد شعراء العرب وفرسانهم المشهورين.

(٢) شرح التسهيل لابن مالك ١/ ٢٤٨.

وأما في الآية الثانية فجاء باسم الإشارة للقريب (هذا)؛ لأنه قد سبق الكلام على الكتب السماوية المنزلة قبل القرآن، في قوله **وَعَلَّمَ** : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ (الأنعام: ٩١).

ثم استؤنف الكلام على كتاب آخر غير "الكتاب الذي جاء به موسى"، وهو القرآن الكريم الذي ينزل عليهم (الآن): ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾، فأشير إليه بإشارة القريب كي لا يضطرب الكلام ويلتبس؛ إذ لو قيل: "وذلك كتاب أنزلناه مبارك"، لكان الكلام استمراراً لما قبله، وحينئذ يكون المشار إليه هو كتاب موسى المذكور. من هنا أثر القرآن الانتقال إلى الحديث عن القرآن بلفظ الإشارة للقريب (هذا) ليصرف الأذهان عما سبق ذكره ويلفتها إلى الكتاب الذي يتنزل عليهم، الحاضر بين أيديهم لترغيبهم في العكوف عليه وتدبر آياته.

فلكل تركيب لغوي سياقه الذي يقتضي مقتضيات تعبيرية بعينها، حتى وإن تساوت أساليب التعبير في نقل المعنى، يظل لكل تركيب خصوصيته (البلاغية) الزائدة على مجرد نقل المعنى.

وإذن فليس ثمة تعارض بين الإشارة إلى القرآن الكريم مرة بـ(ذلك)، وأخرى بـ(هذا)، بل حكم عالية وملامح بلاغية رائعة.

● أسلوب القسم:

زعموا أن هناك تناقضًا في الاستعمال القرآني لأسلوب القسم، واستدلوا لزعمهم بقول الله ﷻ: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (البعد: ١) وقوله ﷻ: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ (التين: ٣).

فجاء فعل القسم منفيًا في آية البلد، ثم جاء مثبتًا في آية التين - وهذا - في ظنهم - تناقض.

أولاً: القسم في كلتا الآيتين مثبتٌ وليس منفيًا، والمشكلة في فهمكم لمعنى (لا) في أسلوب القسم.

ثانيًا: (لا) في مثل هذه المواضع داخلية في الكلام لتقويته وتأكيده، وليس لنفيه، نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَّكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ (٩٦) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) (طه: ٩٢ - ٩٣). وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ (الأعراف: ١٢)، ويوضحه ما في الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَإَيُّهَا بَلِيسُ مَا مَنَّكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِدَّتِي﴾ (ص: ٧٥)، والسياق واحد في الآيتين، فتكون (لا) في الآية الأولى داخلية للتقوية والتأكيد، ولهذا الاستعمال نظائر في كلام العرب، منها قول الأحوص:

وَتَلَحَّيْنِي فِي اللَّهِ أَنْ لَا أُحِبَّهُ وَلِلَّهِ دَاعٍ دَائِبٌ غَيْرُ غَافِلٍ
أي: أن أُحِبَّهُ، بزيادة (لا) للتأكيد.

ثالثًا: من العلماء من ذهب إلى أن (لا) في مثل هذه المواضع نافية، ولكنها ليست نافية للقسم، بل لشيء تقدم، وهو ما حكى عنهم كثيرًا من إنكار البعث، فقليل لهم: (لا) - أي ليس الأمر كما زعمتم - ثم استؤنف القسم.

ولعل كل المرويات في تأويلها على حساب أبي جاد - مع اختلاف دلالاته - تبدأ من قصة "حيي بن أخطب اليهودي" وقد نقلها "ابن إسحاق" مفصلة في "السيرة النبوية" مع ما نقل من كيد اليهود للإسلام، وجدلهم المُنْعِنِ للمصطفى ﷺ إثر هجرته إلى المدينة، وكانت هي وما حولها منطقة نفوذ لهم منذ حَطُّوا عليها فرارًا من وطأة الرومان، قبل بعثة النبي ﷺ بنحو خمسة قرون، فتسلطوا على مواردها الاقتصادية، وَمَزَّقُوا الوجود العربي فيها بالعداوة والبغضاء.

وخلاصة القصة أن "أبا ياسر بن أخطب" : مر بالمصطفى ﷺ عام الهجرة، وهويتلو فاتحة سورة البقرة، أول سورة نزلت بالمدينة: ﴿الْم ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ (البقرة: ١ - ٢).

فأتى أبو ياسر أخاه "حيي بن أخطب" في نفر من يهود، فنقل إليهم ما سمع مما يتلو المصطفى من القرآن، فمشي حيي في النفر من قومه إلى رسول الله ﷺ فسأله فيما تلا من فاتحة البقرة، فلما استوثق منه قال: لقد بعث الله قبلك أنبياء ما نعلمه بَيْنَ نبي منهم ما مُلْكُهُ وما أجل أُمته غيرك: الألف واحدة، واللام ثلاثون والميم أربعون. فهذا إحدى وسبعون سنة، أفندخل في دين نبي إنما مدة ملكه وأجل أُمته إحدى وسبعون سنة؟.

ثم استطرد يسأل: يا محمد، هل معك مع هذا غيره؟

قال ﷺ: نعم، المص.

قال حيي: هذه أثقل وأطول: الألف واحدة، واللام ثلاثون،

والميم أربعون، والصاد تسعون، فهذا إحدى وستون ومائة سنة، هل مع هذا غيره؟

رد ﷺ: نعم، الر.

قال اليهودي: هذه أثقل وأطول: الألف واحدة، واللام ثلاثون والراء مائتان، فهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة، هل مع هذا غيره؟ ولما ذكر المصطفى ﷺ: (المر) أحصاها حيي بن أخطب على حساب أبي جاد، فهي إحدى وسبعون ومائتا سنة.

وعندها توقف، ثم قام وهو يقول للنبي ﷺ:

لقد لبس علينا أمرك حتى ما ندري أقليلًا أُعْطِيت أم كثيرًا؟ وانصرف بالنفر من قومه، فتساءل أخوه أبو ياسر: ما يدرينا لعله جُمِعَ هذا كله لمحمد؟ وأحصى مجموع ما سمعوا من حروف، فبلغت سبعمائة وأربعًا وثلاثين سنة.

وقال النفر من يهود: لقد تشابه علينا أمره.

ومن هذا التأويل اليهودي دخل القول بحساب الجمل، حساب أبي جاد، ينتقل في كتب التفسير - بصور أو بأخرى - مع غيره من الإسرائيليات التي خالطت الفهم الإسلامي للقرآن الكريم. ونقل السيوطي تأويل الفواتح بهذا الحساب، فيما جُمِعَ من أقوال السلف في هذه الحروف، ونقل معه قول شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر: وهذا باطل لا يعتمد عليه، فقد ثبت عن ابن عباس الزجر عن عدّ أبي جاد، والإشارة إلى أن ذلك من جملة السحر. وليس ذلك ببعيد، فإنه لا أصل له في الشريعة.

وكذلك رفضه الحافظ ابن كثير من أئمة القرن الثامن للهجرة،
(ت ٧٧٤هـ) قال :

وأما من زعم أنها دالة على معرفة المدد، وأنه يستخرج من ذلك
أوقات الحوادث والفتن، والملاحم، فقد ادَّعى ما ليس له وطار في
غير مطاره. وقد ورد في ذلك حديث ضعيف، وهو مع ذلك أدل
على بطلان هذا المسلك من التمسك به على صحته، وهو ما رواه
محمد بن إسحاق بن يسار صاحب المغازي قال: حدثني الكلبي عن
أبي صالح عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله بن رثاب، قال: مرَّ
أبو ياسر بن أخطب.. ونقل القصة كما وردت بسندها في السيرة
لابن إسحاق عن ابن الكلبي، ثم قال: فهذا حديث مداره على
محمد بن السائب الكلبي، وهو ممن لا يحتج بما انفرد به.

ويُفهم من عبارة ابن كثير أن حساب أبي جاد الذي بدأ في قصة
ابن أخطب اليهودي - في السيرة النبوية - بعد الحروف مدة الإسلام
وأجل أمته، قد أضاف إليه العصور، بعد ابن إسحاق في القرن
الثاني للهجرة، استخراج أوقات الحوادث والفتن والملاحم، من
حساب الحروف بعد أبي جاد!

وقد استسخره الشيخ الإمام محمد عبده وقال فيه :

إن أضعف ما قيل في هذه الحروف وأسخره، أن المراد بها
الإشارة بأعدادها في حساب الجمل إلى مدة هذه الأمة أو ما يشابه
ذلك، وروى ابن إسحاق حديثاً في ذلك عن بعض اليهود عن النبي
ﷺ. ولا يزال يوجد في الناس، حتى علماء التاريخ واللغات منهم،
من يرى أن في هذه الحروف رموزاً إلى بعض الحقائق الدينية

والتاريخية ستظهره الأيام.

ثم بدا للسيد الأستاذ علي نصوح الطاهر أن يتجه بحسابها العددي إلى عدد حروف السور التي افتتحت بها، لكن المحاولة - وقد نشرها في رسالة مطبوعة في القدس، سنة ١٩٦٠م - لم تَسَلِّمْ له بعد الجهد الإحصائي المضني^(١).

وقد أنصف المستشرق "بلاشير" حين ذهب إلى ضرورة الرجوع إلى نظريات علماء المسلمين، وآرائهم حول هذه الفواتح، ثم خلص إلى تفضيل قول من قال: إن هذه الفواتح اختصارات لأسماء الله، بل لقد ذهب "بلاشير" إلى التسليم بأن هذه الفواتح سر من أسرار القرآن لا يعلمه إلا الله، وأن من العبث محاولة سبر أغوارها^(٢).

قوله ﷻ: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ (الكهف: ٢٥). زعموا أن ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ حشو لا لزوم له، وتساءلوا: ألم يكن أوجز أن يقال: ولَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ وَتِسْعَ سِنِينَ؟ ولماذا لم يوضح التقويم الذي قاس به هل هو التقويم الشمسي الميلادي، أم التقويم القمري؟

من المعلوم أن القرآن الكريم نزل على سيدنا محمد العربي، فلمَّا كان الإخبار عن أهل الكهف للنبي العربي ذكرت الآية التقويم (القمري) الذي يعرفه العربي والذي يختلف عن التقويم الشمسي (الميلادي)؛ إذ التقويم الشمسي تبلغ السنة فيه ٣٦٥ يومًا والتقويم

(١) الإعجاز البياني للقرآن، د. عائشة عبد الرحمن، ص ١٤٥ - ١٤٨

(٢) هذا هو الإسلام، د. محمد غلاب، ص ١١٠

القمرى ٣٥٤ يومًا، فالاختلاف بينهما - كما ترى - في أحد عشر يومًا، هذا التفاوت على مدار المدة المذكورة في الآية يُنتجُ تسع سنوات.

وفي الآية لمحة بلاغية تعتمد على الإيجاز والدقة في التعبير، فعبرت الآية على قلة ألفاظها عن النوعين من التقويم السائد آنذاك، أمّا ما يدّعيه البعض من أن القرآن حُشي ببعض الكلمات، ويرون أن تكون الآية: "ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة وتسع سنوات" فنقول لهم: إنكم بذلك سكتُم عن إيراد التقويم الميلادي (الشمسي) ولو عادوا وقالوا: يجب أن تكون "ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة ميلادية"، لقلنا لهم: إنكم أغفلتم التقويم (القمرى)، أما لو جاءوا بهما معًا فلقد وقعوا فيما ادّعوه من أن هناك حشواً.

ولكن عبارة القرآن محكمة وفي قمة البلاغة والإيجاز مع إيراد المعنى المتضمن على وجهين^(١).

● المتشابه اللفظي في القرآن: هل هو تكرار لا جدوى منه؟

يستنكر البعض وجود الكثير من التكرار في آيات القرآن الكريم، ويطعنون فيه مُدّعين أنه ليس وحيًا من عند الله، كما جاء في سورة الرحمن، وفي سورة التكاثر، وقصص الأنبياء في السور المتعدّدة، مثل قصة آدم عليه السلام، وقصة عيسى عليه السلام، وغيرهم من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

(١) القرطبي ٣٨٧/١٠، الفخر الرازي ١١٣/٢١، ابن كثير ١٣٠/٣، البحر المحيط ١١٦/٦، أبو السعود ٢١٧/٥، روح المعاني ٢٥٢/١٥

ويزعم هؤلاء أنه لو حُذف التكرار من القرآن فإنه لن يتبقى منه ما يملأ كراسة، وأن ثروة القرآن المعجمية ضئيلة؛ مما أدى إلى ضعف بناء الجملة، واللجوء إلى الحشو، ومزج الخيال بالواقع خاصة في قصة موسى عليه السلام، وهذا مُخالف للعقل والمنطق.

(١) نوذ أن نعلم هؤلاء المشككين أن التكرار في القرآن قد أتى بصور متعددة منها:

○ (تكرار أداة) تؤدّي وظيفة في الجملة بعد أن تستوفي الجملة ركنيها.

○ (تكرار كلمة) مع أختها لداعٍ، بحيث تفيد معنى لا يمكن حصوله بدونها.

○ (تكرار فاصلة) في سورة واحدة على نمط واحد.

○ (تكرار بعض الأوامر والنواهي والإرشادات والنصائح) مما يُقرّر حُكمًا شرعيًا، أو يحث على فضيلة، أو ينهي عن رذيلة، أو يرغب في خير، أو ينفر من شر.

○ (تكرار قصة) في مواضع متعددة، مع اختلافٍ في طرق الصياغة وعرض الفكرة.

وقبل الخوض في تفصيل هذه الصور المتعددة، يجدر بنا لفت نظر هؤلاء المشككين إلى أن التكرار في القرآن جاء ليؤدي وظيفتين:

أولاهما: وظيفة دينية.

ثانيتها: وظيفة أدبية.

فمن الناحية الدينية: يُعدُّ القرآن كتابَ هدايةٍ وإرشادٍ وتشريع - لا يخلو منها فن من فنونه - وأهم ما يؤديه التكرار هو تقرير المكرر وتوكيده وإظهار العناية به، ليكون في السلوك أمثالاً وللاعتقاد أبين. أما الناحية الأدبية: فإن دور التكرار فيها متعدد، وإن كان الهدف منه في جميع مواضعه يؤدي إلى تأكيد المعاني، وإبرازها في معرض الوضوح والبيان.

ولنر الآن فوائد التكرار في كل موضع أثبتناه في صدر هذا الرد.

● تكرار الأداة:

ونضرب له مثلاً بقوله ﷻ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النحل: ١١٠).

تكررت "إن" في الآية، وكان يمكن - في الظاهر - أن يُستغنى عنها في نهاية الآية فيقال: "ثم إن ربك للذين هاجروا من ديارهم من بعد ما فُتِنُوا ثم جاهدوا وصبروا - لغفور رحيم"، بحذف (إن ربك). فما السبب وراء هذا التكرار؟

السبب هو طول الفصل بين "إن" الأولى وخبرها، وهذا أمر يُشعر بتنافيه مع الغرض المسوقة من أجله "إن" وهو التوكيد؛ لهذا اقتضت البلاغة إعادتها لتلحظ العلاقة بين الركنين على ما حَقَّقها أن تكون عليه من التوكيد، هذا علاوة على أن حذفها سيؤدي إلى الاضطراب وعدم التناسق.

● تكرار الكلمة مع أختها :

ومثاله قوله ﷻ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (الرعد: ٥) حيث تكررت كلمة "أولئك" في الآية ثلاث مرات، فما السر وراء هذا التكرار؟

هذا التكرار لا نجد له إلا حسناً وروعة، فالأولى والثانية تُسَجِّلَانِ حُكْمًا عَامًّا عَلَى مُنْكَرِي الْبَعْثِ وَهُوَ: كَفَرَهُمْ بِرَبِّهِمْ وَكَوْنِ الْأَغْلَالِ فِي أَعْنَاقِهِمْ، والثالثة: بيان لمصيرهم المهين ودخولهم النار ومصاحبتهم لها على وجه الخلود الذي لا يَعْقُبُهُ خُرُوجٌ مِنْهَا، ولو أُسْقِطَتْ "أولئك" من الموضعين الثاني والثالث لاضطرب المعنى، فتصبح (الواو) الداخلة، على ﴿الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ واو حال، وتصبح الداخلة على ﴿أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ استئنافية لا علاقة لها بما قبلها، عاطفة عطفاً يضطرب معه المعنى؛ لذا حُسِنَ التكرار في الآية لما فيه من صحة المعنى وتقويته.

● تكرار الفاصلة :

سنكتفي هنا بإيراد موضع واحد تكررت فيه (الفاصلة) لنرى ماذا يُمَثِّلُهُ ذلك التكرار، وهل هو غير مفيد - كما زعموا - أو هو على العكس من ذلك؟

● التكرار في سورة الرحمن :

لقد تكررت فيها عبارة: ﴿فَيَايَا آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إحدى وثلاثين مرة، ويمكن أن نسجل عدة ملاحظات حول هذا التكرار ومنها:

○ أن هذا التكرار هو أكثر صور التكرار الوارد في القرآن على الإطلاق.

○ أنه - أي التكرار - قد مُهّد له تمهيداً رائعاً، حيث جاء بعد اثنتي عشرة آية مُتَّحدة الفواصل، وقد تكررت في هذا التمهيد كلمة "الميزان" ثلاث مرات متتابة بدون بُؤ أو ملل، وهذا التمهيد قد أتاح مساحة كبيرة حتى كان بمثابة مقدمة طبيعية لِتَأْلَفِ النَّفْسُ التكرار الذي سيرد بعد ذلك.

○ أن الطابع الغالب على هذه السورة، هو طابع تَعْدَادِ النعم على الثَّقَلَيْنِ: "الإنس والجن" وبعد كل نعمة يُعَدِّدها تأتي عبارة: ﴿فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وعلى هذا يمكن فهم التكرار في هذه السورة على أنه تذكير وتقرير لنعمه، وأنها نعم عظيمة فلا يمكن إنكارها.

● التكرار في القصة:

الملاحظ أن القصص القرآني كله يغلب عليه التكرار إلا في قصة واحدة، وهي قصة يوسف عليه السلام وذلك لأنها تتحدث عن جريمة خلقية، وهي محاولة امرأة العزيز إغراءه، وفي سبيل صيانة الأعراض فرغ القرآن من سَوِّقها مرة واحدة. والقصص القرآني في جملته مسُوق لغرضين:

● أنه تسليّة للنبي صلى الله عليه وسلم وتثبيت لفؤاده، فهو ليس بدعاً من الرُّسل، فكل الرسل قد عانوا من أقوامهم ما عانيت من قومك.

● تهديد وزجر للمُخالفين، وبيان لمصير أمثالهم لعلهم يُقلعون عن غيِّهم.

وهذه الدواعي مُحَقَّقة في كل مرة ورد فيها التكرار، على أنه يمكن أن يلاحظ في تكرار القصص القرآني ما يلي:

١ - عدم توحد الصياغة في كل موضع كُرِّرَتْ فيه القصة، وفي هذا إحياء بأنها جديدة متجددة دائماً، وليس فيها سامة أو ملل، بل فيها روح وطرافة.

٢ - كذلك فإن المعاني التي تتحدث عنها القصة القرآنية لم تكن لمجرد التهديد أو التسلية، بل إن التكرار يحوّل المكرر إلى مُعْتَقَد. ٣ - ومن عادة العرب إذا اهتَمَّت بشيء أرادت تحقيقه أن تكررّه، وكأنها تقيم التكرار مقام المُقَسَّم عليه.

٤ - إن في التكرار تقريراً للمعاني في الأنفس، وتثبيتاً لها في الصدور، ألا ترى أنه لا سبيل لحفظ العلوم إلا ترديد ما يُرام حفظه منها، وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلوب، وأوسع له في الفهم، وأثبت للذكر، وأبعد من النسيان.

٥ - وهناك حقيقة مهمة، وهي أن الإشادة بجمال التكرار في القرآن لم يقتصر على العلماء العرب، بل إن كثيراً من المستشرقين قد شهدوا بذلك، منهم "جرونهاوم" كما نقل عنه عبد الكريم الخطيب في كتابه: "الإعجاز القرآني"، ولا شك أن الفضل ما شهدت به الأعداء.

ولنأخذ مثلاً، ولتكن قصة آدم لنلحظ فوائد التكرار فيها.

هذه القصة وردت في سبع سور سبع مرات، وترتيب السور التي وردت فيها القصة حسب نزولها هي:

أولاً: في مكة: "ص - الأعراف - طه - الإسراء - الحجر - الكهف".
ثانياً: في المدينة: "البقرة".

ومن هنا نعلم أن نصيب العهد المكي من القصة كان وفيراً، بالقياس إلى العهد المدني، ولناخذ موضعاً واحداً لنلاحظ أثر التكرار فيه.

قال ﷻ: ﴿وَقُلْنَا يَتَّادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ (البقرة: ٣٥)، وفي موضع آخر يقول: ﴿وَيَتَّادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ (الأعراف: ١٩).

لقد جاءت الآيتان بنسق واحد غالباً إلا في:

• قوله تعالى في البقرة: "وَكُلَا"، وفي الأعراف: "فَكُلَا".

"قيل: إن السكنى في (آية البقرة): للإقامة، وفي (آية الأعراف): اتخاذ المسكن: فلما نُسِبَ القول إليه ﷻ: ﴿وَقُلْنَا يَتَّادُمُ﴾ ناسب زيادة الإكرام بالواو الدالة على الجمع بين السكنى والأكل، ولذلك قال فيه (رغداً)، وقال (حيث شئتما) لأنه أعم، أما في الأعراف فقد قال ﷻ: ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ فأتى بالفاء الدالة على الترتيب، فالأكل يأتي بعد المسكن الذي أمر آدم باتخاذهِ، وقوله: "من حيث" لا يعطي عموم "حيث شئتما"^(١).

ونلاحظ من خلال الشاهد الذي أوردناه:

• أن المواضع التي كرّرت فيها القصة لا تكون غالباً بنسق واحد في الصياغة.

(١) كشف المعاني، بدر الدين بن جماعة، تحقيق/ د. محمد محمد داود، ص ٥٦.

• أن كل موضع يفيد معنى جديداً لا يستفاد من غيره من المواضع .
ولو ذهبنا نتبع كل المواضع التي ورد فيها التكرار في القرآن الكريم لوجدنا أنه يأتي لإفادة معانٍ عظيمة في كل مرة، فضلاً عما فيه من التوكيد، فأين موضع التشكيك الذي يتوهمه المتوهمون؟!
أما تساؤلهم عن الفرق بين قوله ﷻ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة: ٥٥)، وقوله ﷻ: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة: ٨٥).

فنقول لهم: إن الآية الأولى: ظاهرة في قوم أحياء، والثانية: في قوم أموات.

وأما الفاء في الأولى: فلأن ما قبلها أفعال مضارعة تتضمن معنى الشرط كأنه قيل: إن اتصفوا بهذه الصفات من الكسل في الصلاة، وكراهية النفقات فلا تعجبك أموالهم... إلخ. ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ (التوبة: ٥٤).

والآية الثانية: تقدّمها أفعال ماضية، وبعد موتهم، فلا تصلح للشرط؛ فناسب مجيئها بالواو.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ فلما تقدم من التوكيد في قوله: ﴿إِلَّا وَهُمْ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ﴾ إلى ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ﴾، فناسب التوكيد في قوله تعالى: ﴿وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ بخلاف الآية الثانية.

وأما (اللام) في الأولى ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾، و(أَنْ) في الثانية ﴿أَنْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ فلأن مفعول الإرادة في الأول محذوف، واللام للتعليل تقديره: إنما يريد الله ما هم فيه من الأموال والأولاد لأجل تعذيبهم في حياتهم بما يصيبهم من فقد ذلك، ولذلك قال ﷻ: ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ ومفعول الإرادة في الآية الثانية أن يعذبهم لأن الأفعال المتقدمة عليه ماضية ولا تصلح للشرط ولذلك قال الله ﷻ: ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (التوبة: ٨٤).

وأما: ﴿الذُّنْيَا﴾ في الآية الثانية فلأنها صفة للحياة فاكتفى بذكر الموصوف أولاً عن إعادته ثانياً^(١).

وهذه الآية (التوبة: ٥٥) خالفت الآية الثانية (التوبة: ٨٥) بأمور:

أحدها: أن هذه جاء العطف في أولها بالواو، والأخرى عطفت بالفاء. ومناسبة التفریع هنالك تقدم بيانها، ومناسبة عدم التفریع هنا أن معنى الآية هذه ليس مفرعاً على معنى الجملة المعطوف عليها ولكن بينهما مناسبة فقط.

ثانيها: أن هذه الآية عطف فيها الأولاد على الأموال بدون إعادة حرف النفي، وفي الآية السالفة أعيدت (لا) النافية، ووجه ذلك أن ذكر الأولاد في الآية السالفة لمجرد التكملة والاستطراد؛ إذ المقام مقام ذم أموالهم؛ إذ لم ينتفعوا بها؛ فلما كان ذكر الأولاد تكملة كان شبيهاً بالأمر المستقل؛ فأعيد حرف النفي في عطفه، بخلاف مقام هذه الآية فإن أموالهم وأولادهم معاً مقصود تحقيرهما في نظر المسلمين.

(١) كشف المعاني، ص ١١٥

ثالثها : أنه جاء هنا قوله ﷻ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ ﴾ بإظهار (أن) دون اللام ، وفي الآية السالفة : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ بذكر لام التعليل وحذف (أن) بعدها . وقد اجتمع الاستعمالان في قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ﴾ (٢٧) (النساء : ٢٦ - ٢٧) ، وحذف حرف الجر مع (أن) كثير ، وهنالك قُدِّرَت (أن) بعد اللام وتقدير (أن) بعد اللام كثير . ومن محاسن التأكيد الاختلاف في اللفظ ، وهو تفنن .

رابعها : أنه جاء في هذه الآية أنه يعذبهم بها في الدنيا ، وجاء في الآية السالفة في الحياة الدنيا ، ونكتة ذلك أن الآية السالفة ذكرت حالة أموالهم في حياتهم فلم تكن حاجة إلى ذكر الحياة . وهنا ذكرت حالة أموالهم بعد مماتهم لقوله ﷻ : ﴿ وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ﴾ (التوبة : ٨٤) ؛ فقد صاروا إلى حياة أخرى وانقطعت حياتهم الدنيا وأصبحت حديثاً^(١) .

• وللتكرار في القرآن الكريم دور مهم في المعنى ، وله أثره الكبير في نفس القارئ والسماع ، فمثلاً كرر القرآن في سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة قوله تعالى : ﴿ فَإِنِّيْ ءَاِلَآءِ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ ﴾ متسائلاً عما يستطيع أن ينكره الجن والإنس مما أولاهما الله من نعم ، فلعل في هذا السؤال المتكرر ما يثير في نفس سامعيه اليقين بأنه ليس من الصواب نكران نعم تكررت وآلاء توالى .

(١) التحرير والتنوير ، مجلد ٦ ، ج ١٠ ، ص ٢٨٦ - ٢٨٧

وهنا يحسن أن أقف مشيرًا إلى ما قد يبدو من أن لا وجه لإيراد هذه الجملة في بعض المواضع من السورة، كما يتراءى ذلك في قوله سبحانه وتعالى:

﴿كُلٌّ مِّنْ عَلَيْهَا فَإِنَّ (٢١) وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَإِنِّي ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨)﴾ (الرحمن: ٢٦ - ٢٨)، فأني نعمة يذكر بها الجن والإنس في فناء هذا العالم؟ ولكن التأمل في هذه الآيات وما ورد من هذا السؤال بعد وصف اليوم الآخر وأهواله، يدل على أن مثل هذا السؤال سيوجه بعد فناء هذا العالم، فكأن القرآن يقرر أنه سيلقى مثل هذا السؤال يوم تنشق السماء، ويوم يعرف المجرمون بسماهم، أفلا يجدر بالمرء أن يفكر طويلًا، كما أوحى القرآن بذلك، في تلك الآلاء والنعم، فيقوم بواجب الإيمان بالنعم وشكرها، حتى لا يقف موقف الجاحد لهذه النعم يوم يحاسب الله الثقلين.

• وكررت في سورة المرسلات تلك الجملة المندرة، وهي قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَّوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، وإذا نظرنا إلى هذه السورة، وجدناها تتحدث عن وقوع اليوم الآخر، وتصفه، فلا جرم أن تكرر هذا الإنذار عقب كل وصف له، أو فعل يقع فيه، أو عمل من الله يدل على قدرة يحيى بها الناس بعد موتهم، وفي هذا التكرير ما يوحى بالرهبة، ويملأ القلب رعبًا من التكذيب بهذا اليوم الواقع بلا ريب.

• وفي سورة الشعراء، تكررت هاتان الآيتان: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩)﴾ ثمانى مرات، وكانت متمكنة من موضعها في كل مكان حلت فيه، فقد جاءت في هذه السورة أولاً، بعد أن وجه القرآن نظرهم إلى

الأرض ، أو ليس فيما تنبته من كل زوج كريم ما يثير في النفس التأمل لمعرفة خالق الأرض ومحبيها؟ واستمع إليه سبحانه يقول : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَلْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ (الشعراء : ٧ - ٩) .

ويكرر الآية في موضع آخر تحدث فيه عن انفلاق البحر لموسى ونجاته ، وغرق فرعون ، وتلك آية من أكبر دلائل قدرته سبحانه ، فهي جديرة بتسجيلها والإشارة إليها . قال تعالى : ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿١٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٨﴾﴾ (الشعراء : ٦٣ - ٦٨) .

وكررت هاتان الآيتان ست مرات أخرى عقب كل ما يجدر أن يكون عظة يعتبر بها ، كتصوير جند إبليس وقد كبكبوا في جهنم ، وأخذوا يختصمون فيما بينهم ويقررون أنهم كانوا في ضلالة وعمى ، ويتمنون لو عادوا ليصلحوا ما أفسدوه ، أو ليس في ذلك من العظة ما ينهى عن مثل هذا المصير؟! .

وكررها كذلك عقب قصة صالح ولوط وشعيب ؛ لأن مصير أقوامهم حقيق بأن تُؤخذ منه العظات والعبر ، وكأن هاتين الآيتين تشيران إلى مرحلة من القول يحسن الوقوف عندها والتريث لتدبرها ، وتأمل ما تحوي من دروس تستفاد مما مضى من حوادث التاريخ . وختُم الآية بوصفه تعالى بالعزة والرحمة فيه كل المناسبة

للحديث عن مصير الكافر والمؤمن، فهو عزيز يعاقب الكافر،
ورحيم بمن آمن.

• ونجد الآية التي كررت في سورة القمر، وهي قوله سبحانه:
﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ مُنْبَهَةٌ في كل موضع وردت
فيه، إلى أن ما سيأتي بعدئذ مما عني القرآن بالحديث عنه، تذكرة
وعظة، وهو لذلك جدير بالتأمل الهادئ والتدبر والادِّكار.

وقد يحدث التكرير في آيتين متواليتين، كما في قوله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ
مَكَانٌ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ
وَأَيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ
وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾﴾ (النساء: ١٣١ - ١٣٢). وذلك لتثبيت الإيمان بغنى الله
عن عبادة العابد، في قلوب الناس، ليقبلوا على العبادة مؤمنين بأنها
لخيرهم ورحمتهم.

بل قد يكون التكرير في الآية الواحدة؛ وذلك لتثبيت المكرر في
النفس، كما في قوله ﷻ: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ
مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ (الحشر: ١٨)،
وقوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرِي إِنْ أَلَّهِ أَصْطَفَكَ وَطَهَّرَكَ وَأَصْطَفَكَ عَلَى نِسَاءِ
الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ (آل عمران: ٤٢).

• ويوحى التكرير في سورة (الكافرون) باليأس إلى قلوب من كفر
من أن ينصرف الرسول عن دينه إلى ما كان يعبد هؤلاء الكفرة،

فليتدبروا أمرهم بينهم مَلِيًّا، ليروا سرَّ هذا الإصرار من محمد، فعساهم يدركون أن هذا السرَّ هو أن الرسول على حَقٍّ فيما يدعو إليه، فلم ينصرف عنه إلى أديان لا سند لها من الصواب والحق؟!^(١).

وقد كانت هذه الخاصة ولا تزال مجال بحث ودرس، وما أكثر ما ظنها بعض المستشرقين الأعاجم ثغرة يمكن التركيز عليها في نقد القرآن وإلحاق النقيصة به.

وفي القرآن من هذه الظاهرة نوعان: أمَّا أحدهما فتكرار بعض الألفاظ أو الجمل، وأمَّا الثاني فتكرار بعض المعاني كالأقاصيص والأخبار.

فالنوع الأول منه: يأتي على وجه التأكيد، ثم هو ينطوي بعد ذلك على نكت بلاغية أخرى كالتهويل، والإنذار، والتجسيم، والتصوير، وللتكرار أثر بالغ في تحقيق هذه الوجوه البلاغية في الكلام. غير أنه لا ينبغي أن يذهب بك الوهم إلى أن أي تكرار للكلمة أو الجملة يفي بهذا الغرض، وأنها وسيلة قريبة المنال لكل قادر على الكلام؛ فالتكرار الذي من شأنه أن يرتفع بقيمة الكلام إلى الفصاحة والسمو في التعبير، له قيود وحالات معينة لا ينبغي أن يتجاوزها، وليس أي تكرير في الكلام يبعث فيه التهويل أو التجسيم؛ ولو ذهبنا نشرح الصور المحمودة لتكرار الكلام وقيود ذلك - ولو شرحًا يسيرًا - لطال بنا البحث وخرجنا عمَّا نحن بصدد^(٢).

(١) من بلاغة القرآن، د. أحمد أحمد بدوي؛ ص ١٥٣ - ١٥٥

(٢) انظر: إعجاز القرآن للباقلاني، ص ١٢٧؛ الفوائد المشوق إلى علوم القرآن =

وإذا سألت عن وجه العلاقة بين التكرار وهذه الصور البلاغية، فإن خير جواب على ذلك أن أضع فكرك وذوقك العربي أمام نماذج لهذا النوع من التكرار في هذا الكتاب المبين.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادُ بِالْقَارِعَةِ ۝٤﴾ (الحاقة: ١ - ٤).

ومنه قوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧﴾ (المدثر: ٢٦ - ٢٧)، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُلْ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُلْ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠﴾ (المدثر: ١٨ - ٢٠).

وكل ما في القرآن من تكرار الكلمة أو الجملة هو من هذا القبيل وعلى مثل هذا الإشراق، وما أحسبك سائلي بعد ذلك عن وجه الجمال أو التهويل أو التصوير في هذا التكرار إن كنت على شيء من السليقة العربية وذوقها.

وأما النوع الثاني منه: وهو تكرار المعنى، كتكرار بعض القصص والأخبار، فهو ظاهرة بارزة في كتاب الله تعالى؛ ومرد ذلك إلى غرضين هامين:

= وعلم البيان، ابن القيم، دار الكتب العلمية: بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ص ١٦٣ - ١٧٠؛ الطراز، العلوي الميمني ٢/ ٢٢٩ - ٢٦٦ (صفحات متفرقة)، ٣/ ٨١٨ - ٣٢٢؛ المثل السائر، ابن الأثير، تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية: بيروت، ٢/ ١٤٦ - ١٦٦؛ الإيضاح، الخطيب القزويني، طبع بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٥٨م، ص ١٩٦ - ٢١٢؛ البيان في روائع القرآن (دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني)، د. تمام حسان، عالم الكتب: القاهرة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ص ١٠٩ - ١٢١.

الغرض الأول: إنهاء حقائق الدين ومعاني الوعد والوعيد إلى النفوس بالطريقة التي تألفها، وهي تكرار هذه الحقائق في صور وأشكال مختلفة من التعبير والأسلوب. وفي بيان هذه الحكمة يقول الله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ (طه: ١١٣).

قال الزركشي: وحقيقته - أي حقيقة التصريف - إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى، خشية تناسي الأوّل لطول العهد به^(١).

وهي من الطرائق التربوية التي سلكها هذا الكتاب المبين، ولنا إلى الحديث عنها عودة - إن شاء الله - عند الحديث عن خصائصه التربوية.

أما الغرض الثاني فهو إخراج المعنى الواحد في قوالب مختلفة من الألفاظ والعبارات، وبأساليب متنوعة تفصيلاً وإجمالاً، وتصريف الكلام في ذلك، حتى يتجلى إعجازه ويستبين قصور الطاقة البشرية عن تقليده أو اللحاق بشأوه، وأنت تعلم أن هذا الكتاب إنما تنزل لتحقيق أمرين:

أولهما: إقناع العقلاء من الناس بأنه ليس كلام بشر.

ثانيهما: إلزامهم بالشرعة التي فيه. فلا بد فيه من الوسائل التي تفي بتحقيق السبيل إلى كلا الأمرين.

ومن هنا كان من المحال أن تعثر في القرآن كله على معنى يتكرر

في أسلوب واحد من اللفظ ويدور ضمن قالب واحد من التعبير، بل لا بد أن تجده في كل مرة يلبس ثوباً جديداً من الأسلوب وطريقة التصوير والعرض، بل لا بد أن تجد التركيز في كل مرة منها على جانب معين من جوانب المعنى أو القصة.

ولنضرب لك مثلاً على هذا: اقرأ قصة نوح في سورة هود، وهي ما بين قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (هود: ٢٥)، وقوله ﷻ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود: ٤٩)، ثم ارجع فاقراً القصة نفسها في سورة القمر من الآية ٩ إلى الآية ١٥، ثم اقرأها في سورة نوح، ثم تأمل في النصوص الثلاثة وقارن بين أسلوب كل منها وطريقتها في العرض والتصوير، والجانب المعنوي الذي يركّز عليه التعبير في كل منها، فإنك إن تأملت في ذلك جيداً تخيلت أنك إنما تقرأ في كل مرة خبراً جديداً يشوقك أمره وتفجؤك أحداثه، وشعرت أن النفس بحاجة إلى أن يُعرضَ عليها هذا الخبر من كلا الجانبين وبكلا الأسلوبين.

على أن هذا الغرض يعود إلى ما ذكرناه من كون القرآن خطاباً للناس كلهم، ذلك أن في الناس من لا يكفيه الموجز من القول والخلاصة في الحديث، حتى ينصت إلى الأمر مفصلاً مطناً، وفي الناس من تكفيه الخلاصة ويقنعه الإيجاز، فاقترض الأمر أن تتصرف المعاني القرآنية في طرائق مختلفة من التعبير والبيان. وقد اهتم

الجاحظ بهذه الحكمة في التكرار القرآني أكثر من غيرها^(١).
وبالنسبة للآيات التي تكررت كما في سور الرحمن والمرسلات
والقمر فقد جاء هذا التكرار نغمًا جديدًا من أنغام الحسن الرائع
أُضيفَ إلى تلك الأنغام السارية في القرآن كله.

وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ
، وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ

(١) انظر: إعجاز القرآن للباقلاني، ص ١٠٦ - ١٠٧، البرهان للزركشي ١٢/٣،
إعجاز القرآن للرافعي، ص ٢٢١، البيان في روائع القرآن للدكتور تمام
حسان، ص ١٠٩ - ١٢١، من روائع القرآن للبوطي، ص ١١٧ - ١٢٠

الفصل الثالث

شبهات عامة

شبهات عامة

حاول المشككون - على مر التاريخ - الطعن على القرآن بشتى الطرق، ومن ذلك ما أورده من شبهات عامة، أعني أنها تتضمن عدة جوانب: لغوية، بلاغية، تشريعية، تاريخية، أصولية، فلسفية... إلخ.

وفي الصفحات التالية نورد هذه الشبهات والرد عليها:

● دعوى أن القرآن الكريم من تأليف محمد ﷺ:

زعموا أن النبي ﷺ هو مؤلف القرآن، واستدلوا لذلك بأن للقرآن أسلوبين: أسلوب للسور المكية، وآخر للسور المدنية، وقالوا: إن سبب اختلاف الأسلوبين هو اختلاف البيئة المحيطة التي أثرت في هذا وذاك.

وهذه دعوى قديمة ردّها المشركون منذ بداية نزول القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ (النحل: ١٠٣)، وقال ﷺ: ﴿وَإِذَا تُلِيَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الأنفال: ٣١) .. إلى آخر هذه المزاعم القديمة المتجددة.

ومع أن البيئة على المدّعي، فإننا سنبين لهذا المدّعي سقوط شبهته وتهافتها.

القرآن الكريم تنزيل من رب العالمين والأدلة على ذلك لا حصر

لها، ومن هذه الأدلة:

• إعجاز القرآن الكريم (وسنرجئ الحديث عن هذه النقطة إلى الصفحات القادمة).

• اختلاف أسلوب القرآن عن أساليب الشعر والنثر جميعاً، وهذا أمر ظاهر لا يحتاج إلى مزيد بيان.

• اختلاف أسلوب القرآن عن أسلوب الحديث النبوي؛ فالحديث الشريف - وإن كان قمة في الفصاحة والبلاغة - لا يقاس بالقرآن في عذوبة لفظه وتنوع معانيه وإشاراته، وجرسه الموسيقي المتميز، وبساطة لغته مع عمق معانيه، وما فيه من وجوه الإعجاز التي سنفصلها فيما بعد.

لقد نزل القرآن الكريم على قلب النبي ﷺ بحضرة رجالٍ أهل فصاحة وبيان، وكان من العرب قومٌ أحرص الخلق على أن يجدوا في القرآن مغمزاً، وعليه مطعنًا، ولو كان هذا من عند محمد ﷺ لَعَلُّوا به، ولأسرعوا بالردّ عليه، ولكن القوم علموا ما جهلتم، ولم يُنكروا ما أنكرتم.

ولو افترضنا - جدلاً - أن القرآن من تأليف النبي ﷺ لجاز أن ينافسه عليه آخرون، لكن هذا لم يحدث، وسار القرآن يخترق الآفاق عبر الزمان والمكان حتى اليوم، ولجاز لنا أيضاً أن نقارن في دراسة موضوعية بين أسلوب القرآن وما هو حديث للنبي ﷺ، وستعلن النتيجة أن الفرق شديد الوضوح، ولقد حاول الأقدمون من المشركين دراسة النص القرآني لمعرفة سر تأثيره على من يستمع

إليه، وانحصرت اتهاماتهم في التساؤل عن القرآن: أهو من الشعر؟ أم هو من سجع الكُهَّان؟ أم هو من أساطير الأولين التي نقلها واكتتبها، وأنها تُتلى عليه ليل نهار؟! .

وإذا كان من القواعد المسلَّمة في النقد الأدبي: أن أسلوب الرجل هو الرجل، فإن الشمائل والصفات التي عُرف بها محمد ﷺ في صباه وشبابه، بأنه الصادق، وأنه الأمين، وأنه أحد الشخصيات ذات المكانة في المجتمع، فقد كان يُدعى لمجالسة رؤساء القبائل الموقَّرين من أعضاء "حلف الفضول" وهو حلف كان يبذل ما يمكن تسميته بـ "المساعي الحميدة" في مساندة الضعفاء وردّ المظالم وإقرار السلام بين القبائل والتصدي لمن يُحاول العبث به .

وعندما بلغ النبي ﷺ سنَّ الخامسة والثلاثين أراد القدر أن يكون هو الرجل الذي يُطفئ نزاعًا أوشك أن تشتعل بسببه الحرب بين القبائل بعدما بنوا الكعبة واختلفوا على من ينال شرف وضع الحجر الأسود في مكانه . وكان اتفاقهم على تحكيم أوّل داخل، وكان الداخل هو سيدنا محمد ﷺ الذي بسط رداءه ووضع الحجر عليه، ودعا رؤساء القبائل إلى أن يأخذ كلٌّ بطرف من الرداء ويرفعوا الحجر إلى المُستوى المطلوب، ثم أخذه بيديه ووضع بين رضا الجميع وموافقتهم، فلو كان محمد ﷺ كذابا أو مفتريا، أتكون له هذه المكانة؟ .

إن شخصية بهذه الشمائل لا يُمكن لصاحبها أن يفترى الكذب أو يدّعي ما ليس له .

أما قولهم: إن للقرآن أسلوبين: مكِّي ومدني قد نبعا من تأثر النبي ﷺ بمن حوله، فهذا محض افتراء؛ لأن القرآن كلام الله ﷻ - جلت قدرته وعظمت حكمته - فهو الخالق يعلم مَنْ خَلَقَهُ وما يُناسب كل مخلوق؛ لذا جاء الأسلوب المكيّ يُعالج مجتمعاً قضى حقبة من الزمن في عبادة الأوثان والتقرب إليها كآلهة يعتقدون فيها الضرر والنفع، وقد استمرأت قلوبهم جهالات من الأخلاق تسود مجتمعهم القبليّ الجاهلي، بعيداً عن العلم والتقدم الحضاري الإنساني.

وقد كان عندهم بقية من أخلاق الحنيفية - ملة إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتمّ التسليم - كاحترام البيت الحرام والأشهر الحُرْم والوفاء والنجدة والكرم، إلا أنهم في طريقهم للتخلّي عنها ونبذها شيئاً فشيئاً، هذا وغيره جعلهم يقفون في وجه الرسول ﷺ وقفة شديدة منكرة عنيدة، وحاولوا جهدهم ألاّ ينتشر هذا الدين الجديد وخصوصاً أهل الوجاهة والزعامة منهم، الذين يحرصون على مناصبهم وبقائهم غير مُنازعين عليها.

هذا هو لونُ الكثرة الكاثرة من مجتمع مكة المكرمة، ومن ثمّ عالج القرآن المكي موضوع العقيدة، مُرَكِّزاً على قضية توحيد الله سبحانه وتعالى، وكذلك الإيمان باليوم الآخر ومصير العباد فيه وأوصاف الجنة والنار؛ وذلك لأن صلاح العقيدة وصفاءها هو الأساس في التربية والبناء للمجتمع المسلم الصادق، كما حثَّ على التمسك بالأخلاق الفاضلة والاستقامة على الخير؛ لأن ذلك من ثمار العقيدة الصحيحة، والأسلوب المكي يكثر من القَسَم، وهو من

عادات وأساليب العرب عند تأكيد أمر مهم، والقرآن الكريم يخاطبهم بما أُلْفُوا من أساليب الخطاب؛ ليؤكد لهم حقائق الدين الذي يدعوهم إليه رسول الله ﷺ.

أما مجتمع المدينة المنورة فقد كان قائماً على أساس الإيمان بالله ﷻ والانقياد لتعاليمه وتوجيهاته، وقد نذر نفسه لنصرة الحق والذود عنه والجهاد في سبيله، كان مجتمعاً تشربت شرايينه حبّ الله ورسوله وكان همهم أن يأتيهم أمر من الله ورسوله ﷺ في قضية أيّاً كانت؛ ليتسابقوا في تنفيذه والتقرب إلى مرضاة الله ﷻ.

وإلى جانب هذه الكثرة المؤمنة كان بعض المنافقين، ممّن حال الإسلام بينهم وبين رغباتهم وشهواتهم ووجاهاتهم التي عاشوا عليها، ولكنهم رأوا هذا الإسلام قوياً فخضعوا له ظاهراً وتستروا بلباسه، وأضمرّوا له الكيد وتربّصوا به الدوائر في الخفاء.

وصنف ثالث في المدينة وحولها، وهم طوائف اليهود الذين كانوا يسرحون ويمرحون قبل الإسلام، ويشيرون الفتن والحروب بين طوائف العرب وقبائلهم المتعددة وذلك على المبدأ اليهودي القديم "فَرَّقْ تَسُدْ".

ومن ثم جاء الأسلوب المدني ملائماً لطبيعة هذا المجتمع، وله خصائص من أهمها:

• مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن؛ حيث عايش المسلمون أهل الكتاب عن قُرب ورأوا غُلُوهم وتحريفهم لكتبهم السماوية وافتئاتهم على أنبيائهم - عليهم الصلاة والسلام - فكان القرآن

حينئذ ينتزل بدعوة أهل الكتاب إلى ترك الغلو، وإلى تصحيح الانحراف العقدي والسلوكي الذي كانوا عليه، ويأمر المسلمين أن يجادلوهم بالتي هي أحسن.

• ذكر النفاق والمنافقين وأحوالهم وصفاتهم وتخاذلهم في المواقف الحرجة والشديدة، وقد ظهر النفاق في المدينة يوم ظهر الإسلام وقوي عودُه، ولم يكن بمكة قبل نفاق ولا منافقون، وكان الناس: إمّا مؤمنٌ مبتلى أو كافرٌ معتدٍ.

• كما تعرّض الأسلوب المدني للتشريع والنظم العامة وآيات الجهاد وغير ذلك.

وبعد، فلا غضاضة ولا حرج على القرآن أن يتحدث بالأسلوب الملائم من حيث: طريقة العرض، ومنهجية الأسلوب، وفحوى الخطاب ومضمونه، أمّا أن يخرج علينا هذه الأيام مدّع واهمّ يرى أن أسلوب القرآن نتجاً عن تأثر النبي ﷺ فمثل هذا المدّعي كناطق صخرة يوماً ليؤهنّها، ولعلّه يُذكرنا بقول الشاعر:

قد تُنْكِرُ العَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ وَتُنْكِرُ الفَمُّ طَعْمَ المَاءِ مِنْ سَقَمٍ^(١)
وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ!!

(١) مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص ٦٢ - ٦٤؛ مناهل العرفان، الزرقاني ٢٠٦/١ - ٢٣٨

● الزعم بالقدرة على الإتيان بمثل القرآن:

﴿وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ :
قالها المشركون من قبلهم، ولم يفعلوا. واليوم يتناول المشككون
ويزعمون أن القرآن ليس بمعجزة لغوية، وأن من زاول شيئاً من
صناعة الشعر والكتابة، وآنس من نفسه اقتداراً في البيان، يستطيع
أن يأتي بمثل القرآن!

فلماذا لم يفعلوا من قبلكم؟!

ولماذا لم تفعلوا أيها المدّعون؟!

(١) إن الذي يدّعي هذه الشبهة قد وسوس له شيطان الإعجاب
بنفسه والجهل بالقرآن أنه يستطيع أن يأتي بمثل أسلوبه، وإن ادّعاءه
لا يقوله أحد من الكبار العالمين، وإنما يعرض - إن عرض - للأغرار
الناشئين. ومثل هذا دواؤه عندنا نُصَحُّ نتقدم به إليه أن يُطيل النظر في
أساليب العرب، وأن يستظهر على فهمها بدراسة طرف من علوم
الأدب؛ حتى تستحكم عنده ملكة النقد البياني، ويستبين له طريق
الحكم في مراتب الكلام وطبقاته، ثم ينظر في القرآن بعد ذلك.

وأنا له زعيم بأن كل خطوة يخطوها في هذه السبيل ستزيده معرفة
بقدره، وستحلّ عن نفسه عقدة من عقد الشك في أمره؛ إذ يرى
هنالك أنه كلما ازداد بصيرة بأسرار اللغة، وإحساناً في تصريف
القول، وامتلاكاً لناصرية البيان، ازداد بقدر ذلك هضمًا لنفسه،
وإنكاراً لقوته، وخضوعاً بكلّيته أمام أسلوب القرآن، وهذا قد يبدو
لك عجباً أن يزداد شعور المرء بعجزه عن الصنعة بقدر ما تتكامل

فيها قوته، ويتسع بها علمه.

ولكن لا عجب فتلك سنة الله في آياته التي يصنعها بيديه: لا يزيدك العلم بها والوقوف على أسرارها إلا إزعاناً لعظمتها، وثقة بالعجز عنها، ولا كذلك صناعات الخلق؛ فإن فضل العلم بها يُمكنك منها ويفتح لك الطريق إلى الزيادة عليها؛ ومن هنا كان سحرة فرعون هم أول المؤمنين برّب موسى وهارون.

(٢) فإن أبى المغرور إلا إصراراً على غروره، وكبر عليه أن يُقرّ بعجزه وقصوره، دعونه إلى الميدان، ليُجرب نفسه، ويبرز قوته، قائلين له: أخرج لنا أحسن ما عندك لننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين. غير أننا نعطيه بواحدة أخرى: ألا يخرج على الناس ببضاعته حتى يطيل الروية ويحكم الموازنة. وحتى يستيقن الإحسان والإجادة، فإن فعل ذلك كان أدنى أن يتدارك غلطه، ويؤاري سوءته، وإلا فقد أساء المسكين إلى نفسه من حيث أراد الإحسان إليها.

(٣) وإن في التاريخ لعبراً تُؤثر عن أناس حاولوا مثل هذه المحاولة فجاءوا في معارضة القرآن بكلام لا يشبه القرآن، ولا يشبه كلام البشر، بل نزلوا إلى ضرب من السخف والتفاهة بادّ عواره، باق عاره وشناره، فمنهم عاقل استحيى أن يتم تجربته فحطّم قلمه وصحيفته^(١)، ومنهم ماكر وجد الناس في زمنه أعقل من أن تروج فيهم مثل هذه الترهات أو تنطلي عليهم؛ فطوى صحفه وأخفاها إلى

(١) يُعزى شيء من ذلك لابن المقفع، ولأبي الطيب، وللمعري، والظن بهؤلاء أنهم كانوا في غنى بعقولهم وأذواقهم بما يمنعهم من الشروع في هذه المحاولة، إلا أن يكون على حد: (ولكن ليظمن قلبي).

حين^(١)، ومنهم طائش مستهتر برز بها إلى الناس فكان سخرية للساخرين، ومثلاً للآخرين^(٢).

(١) من ذلك ما اشتهر عن تلك الكتب التي وضعها زعماء فرقتي "القاديانية" و"البهائية"؛ لتكون دستوراً دينياً لهم كالقرآن، وقد لفقوها تلفيقاً ركيكاً من آيات قرآنية وكلمات عامية، وبدلوا فيها أصول الإسلام وفروعه، وادّعوا فيها لأنفسهم النبوة أو الألوهية، ولكن أتباعهم لم يجسروا أن يذيعوا تلك الكتب وشمس العلم طالعة، فأخفوها إلى أن يجيء وقت يَفْشُو فيه الجهل بالعلوم والآداب، وتَسْتَعِدَّ فيه النفوس لقبول أمثالهم. فليتنظروا آخر الدهر.

(٢) من أمثلة ذلك أخبار مُسيلمه الكذاب الذي يقول: "والطّاحنات طحنًا، والعاجنات عجنًا، والخابزات خبزًا"!! وذلك الرجل الذي ادّعى النبوة وزعم أنه أوحى إليه بأفضل من القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ۝ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝﴾ فقال: "إنا أعطيناك الجماهر، فصلّ لربك وجاهر، ولا تطع كل ساحر وكافر"، فأمر به خالد بن عبد الله القسري فضرب عنقه وُصِّلَ على عود، فمرّ به أحد الشعراء فقال له ساخرًا: "إنا أعطيناك العمود، فصلّ لربك على عود، وأنا ضامن ألا نعود" (انظر: الفوائد المشوق، ابن القيم، ص ١٧٢: ١٧٤، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٦١/١). وفي عصرنا هذا برز علينا من يزعم أنه يستطيع أن يأتي بمثل القرآن، فألف هذه السورة. إن جاز التعبير: "قل يا أيها الذين آمنوا إن كنتم تؤمنون بالله حقًا، فأمنوا بي ولا تخافوا، إن لكم عند الله جنّات نَزَلًا فلا سبقتكم إلى الله لأعدّها لكم، ثم لا تينكم نَزَلَةٌ أخرى، وإنكم لتعرفون السبيل إلى قبلي العليا، فقال لهم توما الحوارى: مولانا إنا لا نملك من ذلك علمًا فقال عيسى: أنا هو الصراط إلى الله حقًا ومن دوني لا تستطيعون إليه سبيلًا، ومن عرفني فكأنما عرف الله، وإنكم منذ الآن تعرفونه وتبصرونه يقينًا"

ولا يخفى على القارئ ما في النص من تلفيق فضلاً عن ركافة الأسلوب وفساد العبارة؛ فأما التلفيق فواضح حيث إننا نقول لصاحب هذا النص المنحل: هل كان النص زمن عيسى ﷺ؟ فإذا كان هذا النص، فكيف يتحدّى القرآن الناس ولم يخرج هذا الذي يفوق القرآن من أتباع عيسى ﷺ؟ =

فمن حدثته نفسه أن يعيد هذه التجربة مرة أخرى فليُنظر في تلك العبر، وليأخذ بأحسنها، ومن لم يَسْتَحِ فليصنع ما يشاء^(١).

(٤) لقد سجّل التاريخ عجز أهل اللغة أنفسهم في عصر نزول القرآن، وما أدراك ما عصر نزول القرآن؛ هو أزهى عصور البيان العربي، وأرقى أدوار التهذيب اللغوي، وهل بلغت المجامع اللغوية في أمة من الأمم ما بلغته الأمة العربية في ذلك العصر من العناية بلغتها، حتى أدركت هذه اللغة أشدها، وتمّ لهم بقدر الطاقة البشرية تهذيب كلماتها وأساليبها؟

ورغم ذلك التفوق تحدّاهم القرآن أفرادًا وجماعات، وكرّر التّحدي في صور شتى، متهكّمًا بهم متنزّلًا معهم إلى الأخف فالأخف: فدعاهم أول مرة أن يجيئوا بمثله، ثم دعاهم أن يأتوا بعشر سور من مثله، وأباح لهم في كل مرة أن يستعينوا بمن شاءوا ومن استطاعوا، ثم رماهم والعالم كله بالعجز في غير موارد فقال ﷺ: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ

= وإذا لم يكن، فقد حرنا في فهم هؤلاء، فمرة يقولون: صُلب عيسى ﷺ، فكيف لمن صلب قبل مولد نبينا ﷺ بأكثر من خمسمائة سنة أن يقول بعده بأكثر من ألف سنة ما يتحداه به، وإذا كان فمن الذي أخذ عن عيسى ﷺ هذا الكلام؟ وكيف لنبي من أولي العزم من الرسل أن يتحدى نبيًا مثله تمّنى أن يكون من أتباعه؟!

(١) لم يُعذّ خافيًا الآن أن المحاولات التي حاولت أن تأتي بمثل القرآن ساذجة وليست من المعارضة في شيء؛ لأن المعارضة أن تعتمد إلى معنى من المعاني فتؤديه نفسه بأسلوب آخر يوازي الأصل في بلاغته أو يزيد، ومن يحاول ذلك في القرآن؛ فإن ذلك محالٌ والتجربة أصدق شاهد وخير برهان.

بِعِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ (الإسراء: ٨٨)، وقال ﷻ: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ (البقرة: ٢٤) فانظر أي إلهاب، وأي استفزاز: لقد أجهز عليهم بالحكم البات المؤبد في قوله ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾، ثم هددهم بالنار، ثم سواهم بالأحجار، فلعمري لو كان فيهم لسان يتحرك لما صمتوا عن منافسته، وهم الأعداء الألداء، وأباة الضيم الأعزاء، وقد أصاب منهم موضع عزتهم وفخارهم. ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته، ولا سُلَّمًا يصعدون به إلى مزاحمته، بل وجدوا أنفسهم منه أمام طُود شامخ، فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبًا، حتى إذا استياسوا من قدرتهم واستيقنوا عجزهم ما كان جوابهم إلا أن ركبوا متن الخوف، واستنطقوا السيوف بدل الحروف، وتلك حيلة يلجأ إليها كل مغلوب في الحجة والبرهان، وكل من لا يستطيع دفعًا بالقلم واللسان.

ومضى عصر القرآن والتحدي قائم ليجرب كل امرئ نفسه، وجاء العصر الذي بعده وفي البادية وأطرافها أقوامٌ لم تختلط أنسابهم، ولم تنحرف ألسنتهم، ولم تتغير سليقتهم، وفيهم من لو استطاعوا أن يأتوا هذا الدين من أساسه، ويثبتوا أنهم قادرون من أمر القرآن على ما عجز عنه أوائلهم؛ لفعلوا، ولكنهم ذلت أعناقهم له خاضعين، وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فُعل بأشياعهم من قبل.

ثم مضت تلك القرون، وورث هذه اللغة عن أهلها الوارثون، غير أن هؤلاء الذين جاءوا من بعد كانوا أشد عجزًا، وأقل طمعًا في هذا المطلب العزيز فكانت شهادتهم على أنفسهم مضافة إلى شهادة

التاريخ على أسلافهم، وكان برهان الإعجاز قائماً أمامهم، لا يزال هذا دأب القرآن إلى أن تقوم الساعة^(١).

وهذا التحدي القرآني باقٍ ما دامت السماوات والأرض: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٢٣). هَيَّا جَرِّبُوا، ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٤).

● التشكيك في إعجاز القرآن:

تساءل المشككون عن إعجاز القرآن: هل الإعجاز في لغته؟ أم في أحكامه؟ فإن قيل: في آياته كلها، قلنا: أين الإعجاز في قوله ﴿وَإِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (لقمان: ١٩)؟! أو قوله ﴿وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ (الأحزاب: ٥٠)، وإن قيل: الإعجاز في أحكامه، قلنا: أين الإعجاز في قطع يد السارق والسرقة كانت معروفة وممارسة في المجتمع الجاهلي؟!.

لقد غاب عن أصحاب هذه الدعوى مفهوم الإعجاز، ونقول لهم: إن في هذا القرآن العظيم وجوهاً من الإعجاز، منها ما هو لغوي، وما هو علمي، وما هو تشريعي... إلخ.

ولقد كُتبت في هذا الصدد أعمال علمية وفكرية كثيرة، بعضها شهادات لمفكرين وعلماء منصفين ليسوا من أهل الإسلام نذكر منهم

(١) النبا العظيم، نظرات جديدة في القرآن، د. محمد عبد الله دراز، ص ٨١ - ٨٥.

على سبيل المثال :

- الفيلسوف والمؤرخ الفرنسي الشهير إرنست رينان .
- الكاتب والمفكر الأيرلندي الشهير برنارد شو .
- الكاتب والمفكر الروسي الشهير ليو توليستوي .

أما أن نقتطع كلمة أو جملة من سياقها ثم نزعّم أنها تخلو من الإعجاز، فهذا ما لا يرتضيه عقل ولا منطق، فالكلام لا يكون كلامًا إلا بعد تأليفه ناهيك عن أن يوصف بالإعجاز!!

ولقد خاب ظنكم؛ فالإعجاز القرآني يتجاوز حدود اللغة والتشريع، إن الإعجاز القرآني ماثل في كل جوانب القرآن ومستوياته، يقول "جرو نباوم" :

"القرآن ظاهرة لم يسبق لها مثل في اللسان العربي، وليست آياته مما اخترع النبي ﷺ، بل هي - إن جاز هذا القول - الصورة العربية لكلمة الله نفسه، ولا يستطيع محمد ﷺ أن يضيف إليه كلمة واحدة، أو يلغي منه كلمة واحدة: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٧) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٨) ﴿(يونس: ٣٧ - ٣٨)﴾" (١).

القرآن معجز في نظمه، وفي ألفاظه، وفي موسيقاه، وفي معانيه، وما تضمّنه من إخبار بالغيب (سواء غيب الماضي، أو المستقبل)، وما ضمّه من قصص وعبر، ومن حكمة ودعوة أخلاقية، ومن

تشريعات وأحكام صالحة للإنسان في كل زمان ومكان .
وليس هذا إلقاءً للكلام على عواهنه، ولكن الأدلة القاطعة عليه
موفورة، قديمًا وحديثًا .

● إعجاز النظم القرآني :

نعني بالنظم: ترتيب الكلمات ترتيبًا مخصوصًا، بحيث تؤدي
المعنى المراد على أكمل وجه، وتكون متلائمة مع بعضها في ترابط
وثيق، وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، بحيث يكون
كل لفظ موضوعًا في مكانه، ولو وضع غيره في مكانه لم يصح^(١) .
وقد أفرد عبد القاهر الجرجاني كتابه العظيم "دلائل الإعجاز"
للبهنة على ما في النظم القرآني من وجوه الإعجاز . ولناخذ مثالاً
واحدًا من الآيات القرآنية التي أوردها عبد القاهر الجرجاني
مبينًا بعض جوانب الإعجاز فيها، وذلك قول الله تعالى في
شأن اليهود: ﴿وَلَنَجْذِثَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوةٍ﴾ (البقرة: ٩٦) .
يقول عبد القاهر:

"إذا أنت راجعت نفسك، وأذكيت حسك، وجدت لهذا التنكير،
وأنه قيل: ﴿عَلَى حَيَوةٍ﴾ ولم يقل: "على الحياة" حسنًا وروعة ولطف
موقع لا يُقَدَّرُ قَدْرُهُ، وتجذك تَعْدَمُ ذلك مع التعريف وتخرج من
الأريحية والأنس إلى خلافهما . والسبب في ذلك أن المعنى على
الازدياد من الحياة، لا الحياة من أصلها . . فكأنما قيل: ولتجدنهم
أحرص الناس - ولو عاشوا ما عاشوا - على أن يزدادوا إلى حياتهم

(١) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص ٤٢ .

في ماضي الوقت وراهنه حياة في الذي يستقبل" (١).
وقد كُتِبَ في الإعجاز البياني للقرآن الكريم مئات المؤلفات نذكر
من ذلك:

- الكشف للزمخشري .
- إعجاز القرآن للخطابي .
- إعجاز القرآن للباقلاني .
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني .
- المغني للقاضي عبد الجبار .
- الشفا في التعريف بحقوق المصطفى للقاضي عياض (فيه
مبحث خاص بإعجاز القرآن).
- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي .
- منهاج البلغاء لحازم القرطاجني .
- البرهان في علوم القرآن للزركشي .
- الإتيقان في علوم القرآن للسيوطي .
- معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي .
- إعجاز القرآن لمصطفى صادق الرافعي .
- الإعجاز البياني للقرآن، د. عائشة عبد الرحمن .
- النبأ العظيم، د. محمد عبد الله دراز .

(١) دلائل الإعجاز، ص ٢٢٣ (بتصرف يسير) .

- من بلاغة القرآن، د. أحمد أحمد بدوي.
 - إعجاز القرآن البياني، د. حفني محمد شرف.
 - الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي.
 - إعجاز القرآن، د. عبد الكريم الخطيب.
 - البيان في روائع القرآن، د. تمام حسان.
 - من روائع القرآن، د. محمد سعيد رمضان البوطي.
 - الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان . . . إلخ.
- وما من كتاب في البلاغة، وما من تفسير للقرآن الكريم إلا وعرض للإعجاز للقرآني من وجوه شتى، وأكثر ما ركزت عليه تلك المؤلفات هو الإعجاز البياني والبلاغي.
- وجميع هذه الكتب التي تناولت بعض أسرار الإعجاز في القرآن بدأت بتحدي القرآن للإنس والجن على أن يأتوا بمثله، وإذ عجزوا عن ذلك، فإن هذا - في حد ذاته - دليل قاطع وبرهان ساطع على الإعجاز القرآني.
- ثم تلا ذلك تفصيل وجوه الإعجاز اللغوي والبلاغي، فمن ذلك:
- **الإعجاز اللفظي (الكلمة القرآنية):**
- إن للكلمة القرآنية مزية لا تجدها في الكلمات التي يتكون منها كلام الناس وتعابيرهم مهما سمت في مدارج البلاغة والبيان.
- فهي أولاً:** تتناول من المعنى سطحه وأعماقه وسائر صورته وخصائصه، لا تقف عند العموميات التي تقف عند حدودها تعبيراتنا البشرية.

وهي ثانيًا: تمتاز عن سائر مرادفاتهما اللغوية بتطابق أتم مع المعنى المراد، فمهما استبدلت بها غيرها، لم يَسُدَّ مَسَدُّها ولم يُغْنِ غَناءها، ولم يؤدِّ الصورة التي تؤديها.

ولك أن تسأل: إذا كانت اللغة ذاتها عاجزة عن التعبير عن جميع المعاني والمشاعر، فكيف يتأتى للقرآن أن يُسَخَّرَ كلماته لما وراء الحدود التي تقف عندها طاقة اللغة، وهو إنما يستعمل في تعبيراته اللغة ليس إلّا؟

والجواب: أن القرآن يتناول - كما ستري - من الكلمات المترادفة أدقّها دلالة، وأتمّها تصويرًا بالنسبة إلى نظائرها، فإذا استنفدت اللغة طاقتها ولا تزال بقية من المعنى أو الصورة شاردة وراء حدود البلاغة، اتَّسَعَتْ لها الكلمة القرآنية وشملتْها عن طريق ما تتسم به من جرس ووزن وإيقاع.

ولن تعثر مهما حاولت، على أي ضابط لهذا الجرس والوزن، والإيقاع، مؤملاً أن تطبقه في كلامك وتعبيرك. إنما هو الإحساس الذي يفيض به شعور القارئ عند تلاوته لهذه الكلمات أو سماعه لها مسبوكة مع بعضها، قائمة ضمن هيكلها القرآني الفريد.

فكلمة (أغطش) مثلاً في قوله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ (النازعات: ٢٩) متقاربة من حيث الدلالة اللغوية مع كلمة (أظلم)، ولكن "أغطش" تمتاز بدلالة أخرى من وراء حدود اللغة يستقل بها جرس الأحرف متآلفة مع بعضها، فالكلمة بهذه الدلالة تعبر عن ظلام انتشر فيه الصمت رغم الركود، وتجلّت في أنحائه مظاهر الوحشة. ولست بحاجة - لفهم هذه الصورة من الكلمة -

إلى وساطة لغة أو مراجعة قاموس ، وإنما هو إحساس ينبعث في نفسك من طبيعة الكلمة ووقع حروفها .

وكذلك كلمة "سَكَنًا" من قوله تعالى : ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا﴾ (الأنعام: ٩٦) ، فهي من حيث الدلالة اللغوية متقاربة مع قولك : هدوءًا ، طمأنينة . ولكن المعنى الذي تبثه في شعورك الكلمة القرآنية لا تجد شيئًا منه في غيرها مهما تقارب معها في أصل الدلالة اللغوية تقاربًا يسمح بوقوع الترادف بينهما .

إن طبيعة الأحرف التي تتكون منها كلمة "سَكَنًا" مع توالي الفتحات على حروفها ، تشعرك بذلك الهدوء الذي يبعث الطمأنينة وينشر الأمن والراحة في أنحاء النفس ، دون أن تحتاج في ذلك إلى معرفة أي دلالة لغوية .

ثم حاول أن تحذف كلمة واحدة من كلمات هذه الآية ، وأن تستبدل بها غيرها مما يؤدي المعنى ذاته ، مستعينًا باللغة وقواميسها ، فلسوف ترى أن اللغة كلها أعجز من أن تأتي بألفاظ مثلها أو خير منها في الدلالة على المعنى وتصوير الأحاسيس المطلوب تصويرها ، ومهما غيرت في الآية أفسدت من بهائها ونقصت من روعتها وإشراقها ، ابحث عن أي كلمة تقوم مقام "فالق" في أداء المعنى وتصوير المراد وتجسيم الفكرة ، أو ابحث عن أي كلمة أخرى تضعها موضع "الإصباح" في دلالتها على الحركة والانبثاق وبث الصورة المطلوبة ، أو حاول أن تأتي بكلمة أخرى مكان "سَكَنًا" أو بكلمة أخرى أدل وأخصر وأجمع من هذه الكلمة العجيبة "حسبانًا" فإنك لن تملك من ذلك كله إلا إفساد الآية وتشويه دلالتها .

وربما عجزت اللغة عن اللحاق بالصورة المحلقة التي يريد المتكلم أو الكاتب أن يثبها في خيال السامع، فاضطر أن ينزل عن بساط خياله المحلق، لحاقاً بكلمة تقف دون الصورة التي يريد، لا يجد في اللغة سواها، فيفسد بها الصورة كلها.

غير أن القرآن لا يعجزه أن تكون الكلمة دائماً في مستوى المعنى المراد، على أدق وجه، فهو يصعد باللغة إلى المعنى أو الصورة المطلوبة، ولا ينزل بالمعنى أو الصورة إليها في حال من الأحوال.

انظر حينما يصف البيان الإلهي دعوة امرأة العزيز للنسوة اللاتي يتحدثن منتقدات، عن مراودتها ليوسف عن نفسه، إلى جلسة رائعة مترفة في بيتها، لتطلعهن فيها على يوسف، فيعذرنها فيما أقدمت عليه. لقد قدمت لهن في ذلك المجلس طعاماً ولا ريب. ولقد أوضح القرآن هذا، ولكنه لم يعبر عن ذلك بالطعام، وهو اللفظ الذي لا بد أن يعبر به أو بنظيره أي واحد من الناس مهما امتلك ناصية البلاغة والبيان، لم يعبر البيان الإلهي بهذه الكلمة؛ لأنها إنما تصور شهوة الجائعين من حوله، وتنقل الفكر والخيال إلى (المطبخ) بكل ما فيه من ألوان الطعام وروائح وأسابيه.

فماذا عبر القرآن إذن؟ وأين في اللغة الكلمة التي تؤدي معنى الطعام ولا تمس الصورة بأي تعكير أو تشويه؟!

لقد أبدع القرآن في ذلك تعبيراً عجباً رائعاً. فانظر ماذا قال: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ (يوسف: ٣١).

(مُتَّكَأً) كلمة قرآنية، تصور لك من الطعام ذلك النوع الذي لا يقدم إلا ترفاً وتفكُّها وتجمُّلاً للمجلس، وتوفيراً لمظاهر المتعة فيه، حتى إن الشأن فيه أن يكون الإقبال إليه على حالة من الراحة والاتكاء. والكلمة من الألفاظ الكثيرة التي أبدع القرآن صياغتها واشتقاقاتها فتعلق العرب بها من بعده، ولولا ذلك لما اهتموا إليها ولخانتهم اللغة في هذا الباب عن تصوير ما يريدون.

ونظراً إلى أن القرآن إنما تنزل خطاباً للناس جميعهم، على تفاوت ثقافتهم واختلاف عصورهم، فإن الكلمة القرآنية تنطوي على دلالات متعددة، تستجيب للظروف كلها ولأحوال الناس كلهم، إذا كانت تلك الكلمة تتعلق بمعنى يختلف من عصر إلى آخر، أو يتفاوت فهم الناس له حسب تفاوت ثقافتهم وعلومهم.

ومكان الغرابة والعجب في هذه الكلمات: أن دلالاتها لا تتناقض على الرغم من اختلافها، ولا يشرذم شيء منها عن قواعد اللغة ومقتضياتها، فهي تحتضن في وقت واحد هذه الدلالات، لتقدم إلى كل عصر أو فئة من الناس ما هو أقرب إلى مألوف ذلك العصر أو ثقافة أولئك الناس. وجميعها دلالات صادقة صحيحة لا تنسخ واحدة منها الأخرى.

وأنت لو حاولت أن تلتقط من اللغة كلمات مرنة غنية بهذا الشكل، لرأيت أن الأمر يحتاج إلى جهد عظيم لا يمكن أن ترقى إليه طاقة البشر. مهما أوتوا من قوة الحفظ وسمو البيان.

بأنه شاعر، وأخرى بأنه ساحر، وثالثة بأنه كاهن. فهل يزعم زاعم بعد ذلك أن القرآن قد احتوى على أخطاء لغوية؟!

(٣) كان القرآن الكريم مصدرًا أصيلًا من مصادر السماع التي بنى النحاة قواعدهم عليها، وقد كان وجود القرآن سابقًا لعلم النحو، فعلم النحو يُقَنَّ للظواهر اللغوية الموجودة في القرآن الكريم ويضعها في اعتباره عند استخلاص القواعد، ومن ثَمَّ فإن من العبث أن نعود ونَحْكَم هذه القواعد في الظواهر اللغوية الموجودة في القرآن الكريم، بل العكس هو الصحيح، القرآن هو الحاكم، والقواعد اللغوية نشأت في رحاب القرآن الكريم والحديث الشريف.

(٤) بعض هذه الافتراءات تنتج عن الجهل بقواعد اللغة وأقوال النحاة وما ذكره المفسرون من تخريجات للآيات التي يزعمون وجود خطأ لغوي فيها، فلكل موضع من هذه المواضع التي يزعمون وجود خطأ بها أكثر من وجه تُحْمَل عليه وتتفق به مع قواعد اللغة العربية^(١).

● فائدة وقوع المتشابه في القرآن الكريم:

تساءل المشككون:

ما فائدة المتشابه في القرآن؟!

واستشهدوا لذلك بقول الله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي

(١) رسم المصحف: دراسة لغوية وتاريخية، غانم قدوري الحمد، ص ٦٤٩ -

٦٥٦ (باختصار).

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴿٧﴾ (آل عمران: ٧).

أولاً: نوضح لهم أن المتشابه لا يُقصد به أنه غير مفهوم المعنى، وإنما للعلماء أقوال كثيرة في المقصود بالمحكم والمتشابه، ومن هذه الأقوال:

- المحكم: هو الناسخ، والمتشابه: هو المنسوخ.
- المحكم: ما بين الله حلاله وحرامه، والمتشابه: ما اشتبهت معانيه.
- المحكم: ما لا يحتمل إلا وجهًا واحدًا، والمتشابه: ما احتمل من التأويل أوجهًا.
- المحكم: الفرائض والوعد والوعيد، والمتشابه: القصص والأمثال.
- المحكم: ما تكرر من القصص بلفظ واحد، والمتشابه ما تكرر منها مع اختلاف الألفاظ.
- المحكم: ما اتفق فيه العلماء، والمتشابه: ما اختلفوا فيه.
- المحكم: ما فهم العلماء تفسيره، والمتشابه: ما استأثر الله بعلمه: كقيام الساعة، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج عيسى عليه السلام، وكيفية الاستواء على العرش، وأمر الروح، وما شابه ذلك.
- والملاحظ مما سبق أن كل التعريفات ما عدا الأخير تدل على أن المتشابه ليس المقصود به أنه غير مفهوم المعنى، وإنما معناه: ما يحتاج إلى علم وإعمال ذهن للوصول إلى معناه، وحتى على القول الأخير فإننا نرى أن وقت الساعة، وأمر الروح، وغير ذلك من أمور

لا يضرُّ الجهلُ بها ، ولا ينفع العلمُ بها ، بل قد يكون في الجهل بها فائدة ، كعدم العلم بوقت الساعة ؛ حتى يظلَّ الناس في استعداد دائم لها .

ثانيًا : اختلف العلماء في إعراب "الراسخون" ، فمنهم من ذهب إلى أنها معطوفة على لفظ الجلالة ، وجملة "يقولون" مُستأنفة لبيان حالهم وأنهم يعلمون المتشابه كما يعلمه الله ﷻ ؛ لأن الذي لا يعلم إلا ما يعلمه الناس لا يكون راسخًا في العلم ؛ ولأن الرسول ﷺ دعا لابن عباس - رضي الله عنهما - قائلاً : "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل" ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا وقع مُشْكِلٌ في كتاب الله يستدعيه ويقول له : "غُصْ غَوَاص" ، وَيَجْمَعُ أبناء المهاجرين والأنصار ويأمرهم بالنظر في معاني الكتاب المجيد .

وذهب فريق آخر إلى أن الكلام تَمَّ على قوله ﷻ : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ . وقوله ﷻ : ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا﴾ جملة من مبتدأ وخبر ؛ لأنه مدح الراسخين في العلم بأنهم يقولون : ﴿ءَامَنَّا بِهِ﴾ كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا﴾ ، ولو كانوا يعلمونه لَمَا كان في قولهم هذا مزيد فضل لهم ؛ لأنَّ من عِلِمَ شيئًا لزمه الإيمان به ، كما أنَّ قولهم هذا يقتضي أنهم آمنوا بما عرفوا وبما لم يعرفوا .

وعلى هذا القول يكون الراسخون في العلم قد علموا بالدليل العقلي أن المراد غير الظاهر ، ففَوَّضُوا تعيين المراد إلى علمه ﷻ ، ولم يَحْمِلْهُمْ عدم التعيين على ترك الإيمان .

ومنهم من وَفَّق بين المذهبين ، وذكر أن المتشابه نوعان :

- أحدهما : ما لا يعلمه إلا الله ﷻ كأمر الروح ووقت قيام

الساعة، وما شابه ذلك.

- ثانيهما : يعلمه الله ويعلمه الراسخون في العلم كالذي يَحْتَمِلُ وجوهاً من العربية فَيُتَأَوَّل على الاستقامة، ولا يُسَمَّى راسخاً إلا من يعلم من هذا النوع كثيراً، فقوله ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ يدل بدهشة أن الله ﷻ يعلمه على استيفاء نوعيه كليهما، أما الراسخون فيعلمون النوع الثاني، ودخلوا بالعطف في علم المتشابه.

والكلام بذلك مستقيم على لغة العرب كأن تقول: ما قام لنضري إلا فلان وفلان، وأحدهما نصرك بأن ضارب معك، والآخر أعانك بكلام فقط.

مما سبق يتضح أن أصحاب الزعم القائل بأن المتشابه في القرآن لا جدوى منه؛ لأنه لا يعلمه أحدٌ من الناس - غير مُسَلَّم به، وعلى فرض التسليم به، فهو محصور في أمور لا يضر الجهل بها ولا ينفع العلم بها كأمر الروح، وموعد قيام الساعة، وكيفية الاستواء، وما شابه ذلك.

● الحكمة من وجود المتشابه في القرآن الكريم:

ذكر العلماء حِكْماً كثيرة لوجود المتشابه في القرآن، من أهمها ما يلي:

- أن في خفاء بعض آياته وعجز البشر عن الوصول إلى حقيقتها القطعية ما يُقَلِّل من غرور الإنسان وكبريائه.

- الحثُّ على تحصيل العلم وسبر أغواره حتى يصل الإنسان إلى إدراك أكبر قدرٍ من الحقائق وليتحرَّى العلمَ ويتحرَّر من الجهل والتقليد.

- بيان فضل العالم على الجاهل، ولو فهم جميع الخلق القرآن الكريم على حدّ سواء لاستوى العالم والجاهل، وبطل التفاضل بين الناس، وهذا خلاف ما فطر الله عليه الخلائق والنفوس من تفضيل بعضها على بعض.

- إقامة الحجة على الخلق، وإثبات الإعجاز لهذا الكتاب العظيم حيث يجهل العلماء بعض ما فيه مع أنه كلام صيغ من الحروف التي يتكلمون بها، وبالعربية التي يتفصّحون ببيانها.

- كما أن في ذكر المتشابه الذي استأثر الله بعلمه ابتلاء واختبار للبشر ليظهر مدى إيمانهم بالغيب الذي يُخبر الله عنه، ولا مجال للعقل للوقوف على حقيقته وكنهه من كل وجه، والإيمان بالغيب أساس متين من أسس العقيدة الإسلامية، وبه يتميز المؤمن من الكافر، والعاقل عن البهيم الذي لا يؤمن إلا بما يراه بصره.

وبعد، يتبين لنا من هذا الطرح أن الزعم الذي توهمه بعضهم من عدم وجود فائدة من المتشابه في القرآن - زعم باطل ولا أساس له من الصحة، وإنما هو محض افتراء أدى إليه عدم مطالعة كتب التفسير، وعدم الوقوف على أقوال أهل العلم وأصحاب الخبرة^(١).

● ادّعاء وجود أخطاء إملائية في القرآن الكريم:

يدعي بعضهم أن القرآن الكريم يشتمل على أخطاء إملائية، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ

شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ (التحریم: ١٠). والصواب - في ظنهم - أن يُقال (امرأة) بالتاء المربوطة.

وما ظنوه خطأً إملائيًا، إنَّما يعود إلى طبيعة وخصوصية الرسم العثماني للمصحف الشريف؛ فإن للرسم العثماني خصوصيات تختلف عمَّا تعارف عليه الناس في الكتابة العادية، ومن ذلك كلمات مثل "الرحمن"، "ملك يوم الدين"، و"العلمين"، وكلمة "الحياة" تُكتب في الرسم العثماني هكذا "الحیوة"، ومن ذلك كتابة التاء المربوطة تاءً مفتوحة، وخاصة إذا كانت في كلمة مضافة إلى اسم بعدها كما في الآية التي استشهدوا بها، وكما في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: ٥٦).

وكلمة "امرات" مُدَّتْ تاؤها في سبعة مواضع، وقبضت تاؤها في أربعة مواضع، فالمواضع التي مدت فيها التاء هي:

- ﴿أَمْرَأْتُ عِمْرَانَ﴾ (آل عمران: ٣٥).

- ﴿أَمْرَأْتُ الْعَزِيزِ﴾ (يوسف: ٣٠).

- ﴿أَمْرَأْتُ الْعَزِيزِ﴾ (يوسف: ٥١).

- ﴿أَمْرَأْتُ فِرْعَوْنَ﴾ (القصص: ٩).

- ﴿أَمْرَأَتَ نُوحٍ﴾ (التحریم: ١٠).

- ﴿وَأَمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ (التحریم: ١٠).

- ﴿أَمْرَأْتُ فِرْعَوْنَ﴾ (التحریم: ١١).

ولو كانت هذه الكلمات من قبيل الخطأ لكان من السهل تصويبها، ولَمَّا تُرِكَت هكذا، ولكن لذلك الرسم حكمة؛ فهذه الأسماء لَمَّا لازمت الفعل، صار لها اعتباران: أحدهما من حيث

هي أسماء وصفات، وهذا تُقْبَضُ منه التاء. والثاني من حيث أن يكون مقتضاها فعلاً وأثراً ظاهراً في الوجود، فهذا تُمَدُّ فيه كما تُمَدُّ في: "قالت" و"حققت". وجهة الفعل والأمر ملكية ظاهرة، وجهة الاسم والصفة ملكوتية باطنة.

وقد مُدَّت التاء من كلمة (امراة) في المواضع المذكورة تنبيهاً على فعل التبعل والصحبة وشدة المواصله والمخالطة والاتلاف في الوجود والمحسوس. فأربع من هؤلاء النساء كنَّ منفصلات في بواطن أمرهنَّ عن بعولتهن بأعمالهن: واحدة واصلت بعلمها باطناً وظاهراً، وهي امرأت عمران، فجعل الله لها ذرية طيبة، وأكرمها بذلك وفضلها على العالمين. وواحدة انفصلت بباطنها عن بعلمها طاعة لله وتوكلًا عليه وخوفاً منه، فنجها وأكرمها، وهي امرأت فرعون. واثنان منهنَّ (امراة نوح، وامرات لوط) انفصلتا عن أزواجهما كفرًا بالله فأهلكهما الله ودمرهما، ولم ينتفعا بالوصلة الظاهرة؛ مع أنها أقرب صلة بأفضل أحباب الله. كما لم تضرَّ امرأة فرعون وصلتها الظاهرة بأخبث عبيد الله. وواحدة انفصلت عن بعلمها بالباطن اتباعاً للهوى وشهوة نفسها، فلم تبلغ من ذلك مرادها، مع تمكُّنها من الدنيا واستيلائها على من مالت إليه بحبها وهو في بيتها وقبضتها، فلم يُغْنِ ذلك عنها شيئاً، وقوتها وعزتها إنما كانا لها من بعلمها "العزیز"، ولم ينفعها ذلك في الوصول إلى إرادتها مع عظيم كيدها، كما لم يضر يوسف ما امتحن به منها، ونجَّاه الله من السجن، ومكَّن له في الأرض، وذلك بطاعته لربه، ولا سعادة إلا بطاعة الله، ولا شقاوة إلا بمعصيته، فهذه كلها عِبَر وَقَعَتْ بالفعل في الوجود، في شأن كل امرأة منهن، فلذلك مُدَّت تاءاتهن^(١).

(١) البرهان ١/ ٤١٠ - ٤١٦ (بتصرف وإيجاز).

بينما قُبِضَتْ التاء من كلمة (امرأة) في أربعة مواضع جاءت الكلمة فيها غير مضافة، وذلك في الآيات التالية:

- ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ (النساء: ١٢).

- ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾ (النساء: ١٢٨).

- ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ (النمل: ٢٣).

- ﴿وَأَمْرَأَةٌ مُّؤْمِنَةٌ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ (الأحزاب: ٥٠).

ففي هذه المواضع الأربعة كتبت (امرأة) بالتاء المربوطة، حيث إنها دالة في هذه المواضع على الوصفية، فهي تنتمي إلى الملكوتية الباطنة. على النقيض من المواضع السبعة المذكورة التي رسمت فيها الكلمة بالتاء المفتوحة (امرات)؛ وذلك لدالتها على الفعلية، وهي ملكية ظاهرة لها أثرها في الوجود؛ ففُتِحَتْ تاؤها للدلالة على هذا الظهور.

هكذا يتبين لكل ذي عقل وبصر أن القرآن الحكيم مُنَزَّه عن الخطأ، بالغ ذروة الكمال: في لغته، وبلاغته، وسمو معانيه، وإعجازه الباقي على وجه الدهر، وفي كل ما يتصل به من: القراءات، وطرق الرسم الإملائي الخاصة به، وغير ذلك مما اشرنا إليه، ولا يزال القرآن كنزًا تتفجر منه العلوم والأسرار لمن أطال التأمل وأحسن التفكير والاعتبار:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق: ٣٧)

(ق: ٣٧).

قالوا عن القرآن^(١)

(١)

"لقد قمتُ أولاً بدراسة القرآن الكريم، وذلك دون أيّ فكر مسبق، وبموضوعية تامة، باحثاً عن درجة اتفاق نصّ القرآن ومعطيات العلم الحديث، وكنتُ أعرف - قبل هذه الدراسة عن طريق الترجمات - أن القرآن يذكر أنواعاً كثيرة من الظواهر الطبيعية، ولكن معرفتي كانت وجيزة، وبفضل الدراسة الواعية للنصّ العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث. وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأنجيل. أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلي أبعد من الكتاب الأول، أي سفر التكوين، فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخاً في عصرنا. وأما بالنسبة للأنجيل... فإننا نجد نصّ إنجيل مَتَّى يناقض بشكل جليّ إنجيل لوقا، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمراً لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدّم الإنسان على الأرض.

لقد أثارت الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن دهشتي العميقة في البداية، فلم أكن اعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحدّ من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ومطابقته

(١) مقتبسات من كتاب "قالوا عن القرآن"، د. عماد الدين خليل، والكتاب يعرض العديد من أقوال علماء وأدباء ومفكري الغرب، منهم من أسلم، ومنهم من لم يُسلم.

تماماً للمعارف العلمية الحديثة، ذلك في نصّ كُتب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً. في البداية لم يكن لي أيّ إيمان بالإسلام، وقد طرقت دراسة هذه النصوص بروح متحررة من كل حكم مسبق وبموضوعية تامة. . تناولت القرآن منتبهاً بشكل خاص إلى الوصف الذي يعطيه عن حشد كبير من الظواهر الطبيعية. لقد أذهلتني دقّة بعض التفاصيل الخاصة بهذه الظواهر، وهي تفاصيل لا يمكن أن تدرك إلا في النص الأصلي. أذهلتني مطابقتها للمفاهيم التي نملكها اليوم عن نفس هذه الظواهر، والتي لم يكن ممكناً لأي إنسان في عصر محمد ﷺ أن يُكوّن عنها أدنى فكرة. .

كيف يمكن لإنسان - كان في بداية أمره أمياً - أن يصرح بحقائق ذات طابع علمي لم يكن في مقدور أيّ إنسان في ذلك العصر أن يُكوّنها، وذلك دون أن يكشف تصريحه عن أقل خطأ من هذه الوجهة؟ " .

د. موريس بوكاي Maurice Bucaille: الطبيب والعالم الفرنسي المعروف.

(٢)

"ابتعتُ نسخة من ترجمة سافاري الفرنسية لمعاني القرآن وهي أغلي ما أملك. فلقيت من مطالعتها أعظم متعة وابتهجت بها كثيراً، حتى غدوت وكأن شعاع الحقيقة الخالد قد أشرق على بنوره المبارك" .

وليم بيرشل بيكارد: W. B. Beckard: كاتب إنجليزي مشهور، تخرج من كانتربوري، أعلن إسلامه عام ١٩٢٢م.

(٣)

"إن الأسلوب القرآني مختلف عن غيره، ثم إنه لا يقبل المقارنة بأسلوب آخر، ولا يمكن أن يقلّد. وهذا في أساسه، هو إعجاز

القرآن . . فمن جميع المعجزات كان القرآن المعجزة الكبرى .
 إن إعجاز القرآن لم يَحُلْ دون أن يكون أثره ظاهرًا على الأدب العربي . أما إذا نظرنا إلى النسخة التي نقلت في عهد الملك " جيمس " من التوراة والإنجيل وجدنا أن الأثر الذي تركته على اللغة الإنجليزية ضئيل ، بالإضافة إلى الأثر الذي تركه القرآن على اللغة العربية . إن القرآن هو الذي حفظ اللغة العربية وصانها من أن تتمزق للهجات " .
 د . فيليب حتى : P. Hitti ولد عام ١٨٨٦م ، لبناني الأصل ، أمريكي الجنسية ، تخرج من الجامعة الأمريكية في بيروت (١٩٠٨م) ، عُيِّنَ رئيسًا لقسم اللغات والآداب الشرقية (١٩٢٩ - ١٩٥٤م) .

(٤)

"إنه لا بدّ من الإقرار بأن القرآن - فضلًا عن كونه كتاب - دين وتشريع ، فهو أيضًا كتاب لغة عربية فصحي . وللغة القرآن الفضل الكبير في ازدهار اللغة ، ولطالما يعود إليه أئمة اللغة في بلاغة الكلمة وبيانها ، سواء كان هؤلاء الأئمة مسلمين أم مسيحيين . وإذا كان المسلمون يعتبرون أن صوابيّة لغة القرآن هي نتيجة محتومة لكون القرآن مُنَزَّلًا ولا يحتمل التخطئة ؛ فالمسيحيون يعترفون أيضًا بهذه الصوابيّة ، بقطع النظر عن كونه منزَّلًا أو موضوعًا ، ويرجعون إليه للاستشهاد بلغته الصحيحة كلما استعصى عليهم أمر من أمور اللغة " .

د . جون حنا : Hanna John مسيحي من لبنان ، ينطلق في تفكيره من رؤية ماديّة طبيعية صِرفة ، كما هو واضح في كتابه المعروف (قصة الانسان) .

المصادر والمراجع

- (١) الإتقان في علوم القرآن/ السيوطي . - مكة المكرمة: مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٩٩٦م.
- (٢) أدب الكاتب/ ابن قتيبة؛ تحقيق محمد الدالي . - ط ٢ . - بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦م.
- (٣) أساس البلاغة/ الزمخشري . - بيروت: دار صادر، ١٩٧٩م.
- (٤) أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية/ حسن طبل . . - القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٨م.
- (٥) الأشباه والنظائر في القرآن الكريم/ مقاتل بن سليمان البلخي؛ تحقيق عبد الله شحاتة . - ط ٢ . - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م.
- (٦) الاشتراك والتضاد في القرآن الكريم: دراسة إحصائية/ أحمد مختار عمر . . - القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٣م.
- (٧) إصلاح المنطق/ ابن السكيت؛ تحقيق عبد السلام محمد هارون . - ط ٢ . - القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٦م.
- (٨) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق: دراسة قرآنية لغوية وبيانية/ عائشة عبد الرحمن . - ط ٢ ، مزيدة ومنقحة . - القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٤م.
- (٩) إعجاز القرآن/ الباقلاني؛ تحقيق عماد الدين أحمد حيدر . . - بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ١٩٨٦م.
- (١٠) إعجاز القرآن البياني: بين النظرية والتطبيق/ حفني محمد شرف . - القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - اللجنة العامة

- للقرآن والسنة، ١٩٧٠م.
- (١١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية/ مصطفى صادق الرافعي . - ط ٩ . - بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٧٣م.
- (١٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: المعروف بتفسير البيضاوي/ البيضاوي . - بيروت: دار الجيل، ١٣٢٩ هـ = ١٩١٢م.
- (١٣) الإيضاح/ الخطيب القزويني . - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨م.
- (١٤) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد/ ابن عجيبة؛ تحقيق وتعليق أحمد عبد الله القرشي رسلان . - القاهرة: مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م.
- (١٥) البرهان في علوم القرآن/ الزركشي؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . - القاهرة: مكتبة دار التراث، ١٩٥٧م.
- (١٦) البيان في روائع القرآن: دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني/ تمام حسان . - القاهرة: عالم الكتب، ١٩٩٣م.
- (١٧) تاريخ القرآن/ عبد الصبور شاهين . - القاهرة: دار القلم، ١٩٦٦م.
- (١٨) تاريخ موجز للزمان: من الانفجار الكبير إلى الثوب السوداء/ ستيفن هوكنج؛ ترجمة مصطفى إبراهيم فهمي . - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م.
- (١٩) تأويل مشكل القرآن/ ابن قتيبة؛ شرحه ونشره السيد أحمد صقر . - ط ٣ . - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨١م.
- (٢٠) تفسير أبي السعود: المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم/ أبو السعود العمادي . - ط ١ . - بيروت: دار إحياء

التراث العربي، ١٩٨٣م.

(٢١) تفسير البغوي: المسمى معالم التنزيل/ البغوي؛ تحقيق خالد عبد الرحمن العك، مروان سوار . - ط ١ . - بيروت: دار المعرفة، ١٩٨٦م.

(٢٢) تفسير البحر المحيط/ أبو حيان الأندلسي الغرناطي . - ط ٢ . - [د.م]: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٣م.

(٢٣) تفسير التحرير والتنوير/ محمد الطاهر بن عاشور. - تونس: الدار التونسية للنشر؛ الجماهيرية العربية الليبية: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، [١٩ - م].

(٢٤) تفسير الخازن: المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل/ الخازن. - ط ٢ . - القاهرة: شركة ومكتبة البابي الحلبي وأولاده، ١٩٥٥م.

(٢٥) تفسير الفخر الرازي: المشهور بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب/ الفخر الرازي . - ط ٣ . - بيروت: دار الفكر، ١٩٨٥م.

(٢٦) تفسير القرآن العظيم/ ابن كثير القرشي . - بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

(٢٧) التفسير القيم/ ابن القيم . - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٤٨م.

(٢٨) تفسير النسفي: المسمى مدارك التنزيل وحقائق التأويل/ النسفي؛ تحقيق سيد زكريا . - الرياض: مكتبة نزار الباز، ٢٠٠٠م.

(٢٩) تهذيب اللغة/ الأزهري؛ تحقيق عبد السلام محمد هارون . [وآخ] . - القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٦٤م.

(٣٠) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر

الجرجاني: في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي / حققها وعلق عليها محمد خلف الله، محمد زغلول سلام. - ط ٣. - القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٦م.

(٣١) الجامع لأحكام القرآن/ القرطبي. - ط ٢. - القاهرة: دارالكتب المصرية، ١٩٥٢م.

(٣٢) جسد الإنسان والتعبيرات اللغوية: دراسة دلالية ومعجم / محمد محمد داود. - القاهرة: دار غريب، ٢٠٠٧م.

(٣٣) حاشية الصبان شرح الأشموني على ألفية ابن مالك/ الصبان. - المنصورة: مكتبة الإيمان، [١٩ -]م.

(٣٤) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين/ إشراف وتقديم محمود حمدي زقزوق. - ط ٢. - القاهرة: وزارة الأوقاف. - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ٢٠٠٤م.

(٣٥) الخصائص/ ابن جني؛ تحقيق محمد علي النجار. - ط ٣، مزينة ومنقحة. - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م.

(٣٦) الدر المصون/ السمين الحلبي. - القاهرة: دار الفكر، ١٩٨٣م.

(٣٧) الدفاع عن القرآن ضد منتقديه/ عبد الرحمن بدوي. - القاهرة: مكتبة مدبولي الصغير، ١٩٩٨م.

(٣٨) ديوان الأدب/ الفارابي؛ تحقيق أحمد مختار عمر. - ط ١. - القاهرة: مجمع اللغة العربية، ١٩٧٥م.

(٣٩) الرد على أخطاء إلهية في القرآن/ إعداد مجموعة علماء من مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف. - القاهرة: دار السعادة، ٢٠٠٣م.

- (٤٠) رسم المصحف: دراسة لغوية تاريخية/ غانم قدوري الحمد . - بغداد: اللجنة الوطنية للاحتفال بمطابع القرن الحادي عشر الهجري ، ١٩٩٣م .
- (٤١) رسم المصحف والاحتجاج به في القراءات/ عبد الفتاح إسماعيل شلبي . - القاهرة: مكتبة نهضة مصر ، ١٩٦٠م .
- (٤٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني/ الألوسي . - القاهرة . - ط ٥ ، منقحة ومصححة . - بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٣م .
- (٤٣) زاد المسير في علم التفسير/ ابن الجوزي . - ط ١ . - دمشق: المكتب الإعلامي ، ١٩٦٤م .
- (٤٤) سنريهم آياتنا في الآفاق: الإسلام يتحدى/ وحيد الدين خان؛ تعريب ظفر الدين خان؛ مراجعة وتحقيق عبد الصبور شاهين . - بيروت: مؤسسة الرسالة ، ٢٠٠١م .
- (٤٥) شرح التسهيل / ابن مالك؛ تحقيق عبد الرحمن السيد ، محمد بدوي المختون . - ط ١ . - القاهرة: دار هجر ، ١٩٩٠م .
- (٤٦) شرح الكافية/ الرضي الأستراباذي . - بيروت: دار الكتب العلمية ، [١٩م] .
- (٤٧) الصاحبى في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها/ ابن فارس؛ شرح وتحقيق السيد أحمد صقر . - القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ٢٠٠٣م .
- (٤٨) الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية/ الجوهري؛ تحقيق أحمد عبد الغفور عطا . - القاهرة: دار الكتاب العربي ، ١٩٥٦م .
- (٤٩) صحيح مسلم بشرح النووي / النووي . - القاهرة: دار الفكر ، ١٩٨١م .

- (٥٠) صفوة التفاسير / الصابوني . - سوريا : دار الرشيد ، ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ م .
- (٥١) الظاهرة القرآنية / مالك بن نبي ؛ ترجمة عبد الصبور شاهين . - دمشق : دار الفكر ، ١٩٨٥ م .
- (٥٢) العربية وعلم اللغة الحديث / محمد محمد داود . - القاهرة : دار غريب ، ٢٠٠٢ م .
- (٥٣) علم الدلالة بين النظرية والتطبيق / أحمد نعيم الكراعي . - بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ١٩٩٣ م .
- (٥٤) فتح الباري بشرح صحيح البخاري / ابن حجر العسقلاني ؛ شرح وتحقيق محب الدين الخطيب . - القاهرة : دار الريان للتراث ، ١٩٨٦ م .
- (٥٥) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية / الجمل . - القاهرة : دار المنار للنشر والتوزيع ، [١٩٧-] م .
- (٥٦) فكرة الزمان عبر التاريخ / مجموعة من العلماء ؛ تحرير كولن ويلسون ، جون جرانت ؛ ترجمة فؤاد كامل . - الكويت ، [١٩-] م .
- (٥٧) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان / ابن القيم . - بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٢ م .
- (٥٨) في ظلال القرآن / سيد قطب . - ط ١٣ ، جديدة . - القاهرة : دار الشروق ، ١٩٨٧ م .
- (٥٩) في علم الدلالة : دراسة تطبيقية في شرح الأنباري للمفصليات / عبد الكريم محمد حسن جبل . - الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٧ م .
- (٦٠) قالوا عن القرآن / عماد الدين خليل . - [د.م] : مكتبة مشكاة الإسلامية ، ١٤٢٥ هـ .

- (٦١) نسخة إلكترونية (رقمية) من موقع <http://www.almeshkat.net>
- (٦٢) القاموس المحيط/ الفيروز آبادي . - بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٦ م.
- (٦٣) القرآن الكريم وتفاعل المعاني : دراسة دلالية لتعلق حرف الجر بالفعل وأثره في المعنى في القرآن الكريم/ محمد محمد داود . - القاهرة : دار غريب ، ٢٠٠٢ م.
- (٦٤) القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث/ عبد الصبور شاهين . - القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٩٦٦ م.
- (٦٥) القراءات وأثرها في علوم العربية/ محمد سالم محيسن . - القاهرة : مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٩٨٤ م.
- (٦٦) الكتاب : كتاب سيويه/ سيويه . - ط ٢ . - القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٣ م.
- (٦٧) كتاب الأمالي/ أبو علي القالي . - بيروت : دار الآفاق الجديدة ، [١٩ -] م.
- (٦٨) كتاب دلائل الإعجاز/ الجرجاني ؛ قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر . - القاهرة : مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٤ م.
- (٦٩) كتاب الفقه على المذاهب الأربعة/ عبد الرحمن الجزيري . - القاهرة : دار الإرشاد للتأليف والطبع والنشر ، [١٩٧ -] م.
- (٧٠) كتاب نظام الغريب في اللغة/ الربيعي . - ط ٢ . - القاهرة : مؤسسة الكتب الثقافية ، ١٩٨٧ م.
- (٧١) الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل/ الزمخشري . - بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٣ م.

(٧٢) كشف المعاني في متشابه المثاني/ ابن جماعة؛ حققه محمد محمد داود . - القاهرة: دار المنار للنشر، ١٩٩٨م.

(٧٣) لسان العرب/ ابن منظور . - بيروت: دار صادر، ١٩٩٤م.

(٧٤) المأثور من اللغة/ أبو العميث الأعرابي؛ تحقيق محمد عبد القادر أحمد . - القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨ م.

(٧٥) مباحث في علوم القرآن / مناع القطان . - ط ٧ . - القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م.

(٧٦) المثل السائر/ ابن الاثير؛ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . - بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٨٨م.

(٧٧) المجاز في اللغة وفي القرآن الكريم بين مجوِّزه ومانعيه/ عبد العظيم إبراهيم المطعني . - القاهرة: مطبعة حسان، ١٩٨٥م.

(٧٨) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز/ ابن عطية . - ط ١ . - الدوحة: رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية، ١٩٩١م.

(٧٩) مذاهب التفسير الإسلامي/ إجنس جولدتسهير؛ ترجمة عبد الحليم النجار . - ط ٥ . - بيروت: دار إقراء، ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م.

(٨٠) المزهر في علوم اللغة وأنواعها/ السيوطي؛ شرحه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته محمد أحمد جاد المولى، محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي . - بيروت: منشورات المكتبة العصرية، ١٩٨٦م.

(٨١) معاني القرآن/ الفراء؛ تحقيق أحمد يوسف نجاتي، محمد علي النجار . - ط ٢ . - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م.

(٨٢) معاني القرآن وإعرابه/ الزجاج؛ تحقيق وشرح عبد الجليل عبده

شلبي؛ خرج أحاديثه علي جمال الدين محمد . - القاهرة: دار الحديث، ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م.

(٨٣) معجم القراءات/ عبد اللطيف الخطيب . - ط ١ . - دمشق؛ القاهرة: دار سعد الدين، ٢٠٠٢ .

(٨٤) المعجم الوسيط/ قام بإخراجه إبراهيم أنيس . . . [وآخ]؛ إشراف حسن علي عطية، محمد شوقي أمين . - ط ٢ . - القاهرة: مجمع اللغة العربية، [١٩٨ -]م.

(٨٥) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب/ ابن هشام؛ حققه وفصله وضبط غرائبه محمد محيي الدين عبد الحميد . - القاهرة: مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، [١٩ -]م.

(٨٦) المفردات في غريب القرآن/ الراغب الأصفهاني؛ تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني . - بيروت: دار المعرفة، [١٩ -]م.

(٨٧) المفهوم الحديث للزمان والمكان/ ب. س. ديفيز؛ ترجمة السيد عطا . - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م.

(٨٨) مقاييس اللغة/ ابن فارس؛ تحقيق عبد السلام محمد هارون . - ط ١ . - بيروت: دار الجيل، ١٩٩١م.

(٨٩) من بلاغة القرآن/ أحمد أحمد بدوي . - القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ١٩٧٨م.

(٩٠) من روائع القرآن/ محمد سعيد رمضان البوطي . - ط، مزيدة ومنقحة . - دمشق: مكتبة الفارابي، ١٣٩٥هـ = ١٩٧٥م.

(٩١) مناهل العرفان في علوم القرآن/ محمد عبد العظيم الزرقاوي . - مكة المكرمة: مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٤١٧هـ = ١٩٩٦م.

(٩٢) مولد الزمان: كيف قاس علماء الفلك عمر الكون؟/ جون

جربين؛ ترجمة مصطفى إبراهيم فهمي . - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م.

(٩٣) النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن/ محمد عبد الله دراز .
- ط ٤ . - [القاهرة]: دار القلم، ١٩٧٧م.

(٩٤) النشر في القراءات العشر/ ابن الجزري . - بيروت: دار الكتب العلمية، [١٩ -] م.

المحتويات

الصفحة	الموضوع
٥	مُقَدِّمَةٌ
٧	مُهَيِّدٌ
٧	تاريخ الحرب على القرآن
١٠	لماذا الهجوم على القرآن؟
١٣	الفكر الاستشراقي والهجمة على القرآن
١٦	القرآن يزداد تألقاً وقوة في وجه الافتراءات
٢٠	كمال اللغة القرآنية ومنتهاى تمامها في عيون الخصوم
٣١	الفصل الأول
٣٣	تصنيف الشبهات
٣٥	شبهات نحوية
٣٥	المطابقة في العدد
٣٥	بين الضمير وما يعود عليه
٤٠	بين التمييز والمميز
٤١	بين المبتدأ والخبر
٤٣	بين النعت والمنعوت
٤٤	بين الحال وصاحبها
٤٥	بين الاسم الموصول وما يعود إليه
٤٧	بين البدل والمبدل منه
٤٧	المطابقة في النوع

- ٤٧ بين العدد والمعدود
- ٥٠ بين الضمير وما يعود عليه
- ٥١ بين الفعل والفاعل
- ٥٢ بين المبتدأ والخبر
- ٥٥ بين النعت والمنعوت
- ٥٦ بين الحال وصاحبها
- ٥٧ توهم وجود أخطاء نحوية
- ٦٧ استخدام الضمائر
- ٦٧ ادعاء وجود اضطراب في بعض التراكيب القرآنية
- ٧٢ زمن الفعل
- ٧٤ حروف الجر
- ٧٥ حروف العطف
- ٧٧ أسماء الإشارة
- ٧٩ أسلوب القسم
- ٨١ حذف جواب الشرط
- ٨٢ وضع الاسم الموصول موضع المصدر
- ٨٧ الفصل الثاني
- ٨٩ شبهات صرفية
- ٩٤ شبهات دلالية
- ٩٤ التناقض في معاني الألفاظ
- ١٠٥ اشتباه الدوال
- ١١١ التغيير في أسماء الأعلام
- ١١٤ التقارب الصوتي ليس تقارباً في المعنى
- ١١٧ دعوى وجود غريب الألفاظ في القرآن الكريم

- ١٢٣ دعوى وجود ألفاظ أعجمية في القرآن الكريم
- ١٢٥ الكلمات الأعجمية والغريبة في القرآن الكريم
- ١٢٩ دعوى وجود ألفاظ تجرح الحياء في القرآن الكريم
- ١٣٤ شبهات بلاغية
- ١٣٤ دعوى التناقض
- ١٤٦ دعوى وجود حشو في القرآن الكريم
- ١٥٣ تكرار الأداة
- ١٥٤ تكرار الكلمة مع أختها
- ١٥٤ تكرار الفاصلة
- ١٥٤ التكرار في القصة
- ١٦٧ **الفصل الثالث: شبهات عامة**
- ١٦٩ دعوى أن القرآن الكريم من تأليف محمد ﷺ
- ١٧٤ الزعم بالقدرة على الإتيان بمثل القرآن
- ١٧٩ التشكيك في إعجاز القرآن
- ١٨٠ إعجاز النظم القرآني
- ١٨٣ الإعجاز اللفظي (الكلمة القرآنية)
- ١٨٨ الإعجاز التركيبي (الجملة القرآنية)
- ١٩٦ الإخبار بالغيب
- ٢٠١ الإعجاز التشريعي
- ٢٠٥ الإعجاز العلمي
- ٢٠٩ علم الفلك
- ٢١١ علم طبقات الأرض
- ٢١٦ علم الأغذية
- ٢١٩ الأثر النفسي للقرآن

٢٢٣	حفظ القرآن واستمراره عبر الأزمنة
٢٢٤	بين القرآن . . والشعر، والكهانة، والذوق البلاغي
٢٣١	الزعم بأن المجاز في القرآن من قبيل الكذب
٢٤٣	الزعم بأن القرآن تحدى الضعفاء فقط
٢٤٥	ادعاء أن القرآن ليس محفوظاً
٢٥٥	قراءات القرآن
٢٥٥	حدود اختلاف القراءات
٢٥٧	الحكمة في تعدد القراءات
٢٥٩	اختلاف القراءات والأحكام الشرعية
٢٦٣	فائدة وقوع المتشابه في القرآن الكريم
٢٦٥	الحكمة من وجود المتشابه في القرآن الكريم
٢٦٦	ادعاء وجود أخطاء إملائية في القرآن الكريم
٢٧٠	قالوا عن القرآن
٢٧٣	المصادر والمراجع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كل نفس ذائقة الموت والى الله المرجع والمآب

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه.

(وبعد) فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن القرآن كتاب الله، وأن سُنَّة المصطفى ﷺ وحي إليه من رب العالمين. رضيت بالله تعالى رباً، وبالإسلام ديناً، وبسيدنا محمد ﷺ نبياً ورسولاً.

وأرجو من كل مُحبٍّ صادق وفيٍّ إذا ذكرني (وقد انقضى الأجل) أن يدعو الله تعالى لي بالرحمة والغفران، وأن يُمَنَّ عليَّ بالعفو والإكرام، وهو - تعالى - العفو الرءوف الكريم المَنَّان. ثم يصليّ ويسلِّم على سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان. والسلام.

هذا ما يرجوه من مُحبِّيه الكرام العبدُ الفقير راجي عفو ربه
الرءوف:

محمد داود

كتب للمؤلف

● أولاً : لغويات (دار غريب):

- ١- القرآن الكريم وتفاعل المعاني : دراسة دلالية لتعلق حرف الجر بالفعل وأثره في المعنى في القرآن الكريم .
- ٢- الدلالة والحركة : دراسة دلالية لأفعال الحركة في العربية المعاصرة في إطار المناهج الحديثة .
- ٣- الدلالة والكلام : دراسة تأصيلية لألفاظ الكلام في العربية المعاصرة في إطار المناهج الحديثة .
- ٤- معجم التعبير الاصطلاحي في العربية المعاصرة .
- ٥- معجم ألفاظ الكلام في العامية المعاصرة .
- ٦- العربية وعلم اللغة الحديث .
- ٧- الصوائت والمعنى في العربية .
- ٨- اللغة والسياسة في عالم ما بعد ١١ سبتمبر .
- ٩- حرب الكلمات في الغزو الأمريكي للعراق .
- ١٠- دموع الشوباشي بين يدي سيبويه (طبعة خاصة) .
- ١١- اللغة وكرة القدم .
- ١٢- جسد الإنسان والتعبيرات اللغوية : دراسة دلالية ومعجم .
- ١٣- استدراك ما فات على المعجم الوسيط .
- ١٤- المعجم الوسيط واستدراكات المستشرقين .

● ثانيًا: في مجال تحقيق التراث (دار المنار):

- ١٥- كشف المعاني في متشابه المثاني (ابن جماعة).
- ١٦- شرح كافية ابن الحاجب (ابن جماعة).
- ١٧- متشابهات القرآن الكريم (الكسائي).
- ١٨- معجم الألفاظ القرآنية (القليبي).
- ١٩- المختار من مدائح المختار ﷺ (الصرصري).
- ٢٠- مختصر المنهل العذب المورود شرح سنن الإمام أبي داود (للإمام محمود خطاب السبكي).
- ٢١- تحية الوداع (للأديب الراحل كامل كيلاني).
- ٢٢- في حمى الرحمن (للشاعر المحب خالد أبو العينين) [دار الشروق].

● ثالثًا: في مجال الدعوة الإسلامية (دار المنار):

- ٢٣- من أدب الدعوة.
- ٢٤- الإسلام والزمن المقبل.
- ٢٥- شفاء.
- ٢٦- آلام أمة بين القدس وغدر اليهود.
- ٢٧- مواقف وعبر (خمسة أجزاء في مجلد).
- ٢٨- موعظة البقاع الشريفة بمكة والمدينة.
- ٢٩- القرآن وصحوة العقل.
- ٣٠- الملاذ الآمن.

هذا الكتاب

شعاع ضوء يكشف ما أثير حول القرآن الكريم من شبهات لغوية،
مجيئاً عن الأسئلة التالية :

- ما حقائق التحدي القرآني الخالد؟!!
- ما أسرار الهجوم على القرآن الكريم؟!!
- ما سر انتصار القرآن الكريم فكرياً على الرغم من هزائم المسلمين والعرب في العصر الحاضر؟!!
- كيف يزداد القرآن الكريم قوة وتألقاً كلما زاد الهجوم عليه؟!!
- كيف انهارت الشبهات وتهافت الافتراءات؟!!
- ما حقيقة كمال اللغة القرآنية ومنتهاى تمامها عند الخصوم؟!!
- هل القرآن الكريم مثالٌ لعربية بلا شوائب؟!!
- أيهما يحكم على الآخر: العربية أم القرآن؟!!

رقم الإيداع بدار الكتب : ٢٤٢٥٦ / ٢٠٠٧

الترقيم الدولي : I.S.B.N. 977-295-191-6

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

<https://www.facebook.com/books4all.net>